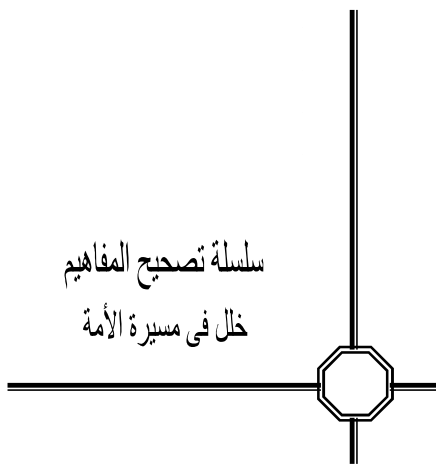


سلسلة تصحيح المفاهيم
خلل في مسيرة الأمة



سلسلة تصحيح المفاهيم



خللٌ في مسيرة الأمة

دكتور

محمد السيد الجليلند

رئيس قسم الفلسفة الإسلامية

دار العلوم — جامعة القاهرة

الناشر

دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبدہ غريب

اسم الكتاب: سلسلة تصحيح المفاهيم (خلل في مسيرة الأمة)

اسم المؤلف: د. محمد السيد الجليلند

سنة النشر: 2006م

رقم الإيداع: 22846 / 2005م

الترقيم الدولي: 5 - 511 - 303 - 977

الناشر

دار قباء

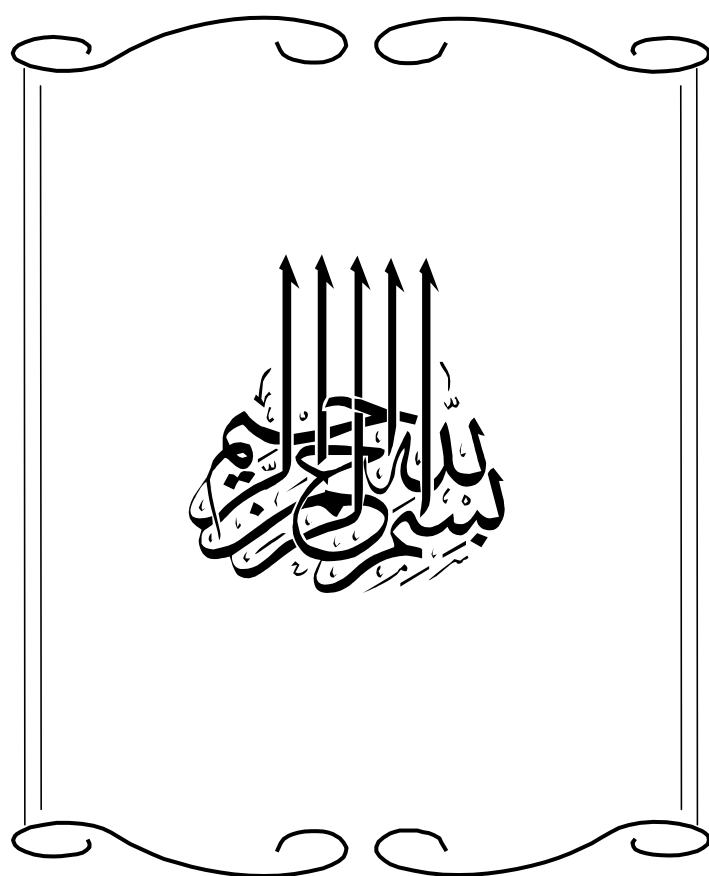
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

(16) عمارات العبور شارع صلاح سالم
الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: 02/2621365

محمول: 012/3140315



تقديم



لا شك أن هذا الموضوع يمس مشكلة كبرى تعاني منها الأمة الإسلامية من ثلاثة أو أربعة قرون من الزمن، إنها مشكلة التخلف الحضاري عن مواكبة العصر علميا واقتصاديا وسياسيا.

ولقد شغلت هذه القضية عقول المفكرين المعنيين بمموم الأمة منذ وقت بعيد، فلم يغب عن عقول أبنائها البحث والتساؤل عن الأسباب التي أدت بالمسلمين إلى هذا الواقع المريع. فشغل بها مفكرون كبار منذ القرن التاسع عشر، وربما قبل ذلك بكثير.

ولو تتبعنا تاريخ المنطقة وقرأناه بعيون عربية وإسلامية ربما نجد هناك محاولات كثيرة ملأت أرجاء العالم العربي بقصد النهوض بالأمة من واقعها، فكانت ثورة محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب تمثل نهضة روحية لإحياء العقيدة الصحيحة في قلوب المسلمين، ومحاولة القضاء على مظاهر الجهل والخرافة ومحاربة الشعوذة والسلوك الهابط الذي لا يقره عقل ولا دين.

وكانت ثورة المهدي بالسودان تمثل نهضة سياسية ضد الاستعمار ومناشدة للحرية السياسية وحق الشعوب في تقرير

مسيرها، وكانت ثورة السنوسي في ليبيا وعبد القادر الجزائري وابن باديس، وكان الهدف الأسمى لكل الثورات هو تغيير واقع الأمة وإحياء الروح الدينية الصحيحة وارتداء وشاح العلم والمنهج العلمي في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية.

ثم جاءت حركة الإصلاح الديني والاجتماعي في مصر على يد الإمام محمد عبده وشيخه الأفغاني، فأكدت ما نادى به الثورات التي سبقتها من ضرورة التغيير الشامل لواقع الأمة والنهوض بها والتخلص من قبضة الاستعمار، التي استحكمت على مقاليد الأمور السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وتحولت مصر على يد بريطانيا المستعمرة إلى مزرعة كبرى تحصد منها ثمارها (القطن والحبوب) ولا تترك لأبنائها إلا الفتات.

نعم. لقد شغل واقع الأمة عقول مفكريها من زمن بعيد، وحاولوا طرح العديد من الأسئلة عن أسباب هذا الواقع المؤلم، فكتب رشيد رضا وشكيب أرسلان عن أسباب تخلف المسلمين وغيرهم ... وأخذ كل فريق يتلمس الأسباب انطلاقاً من تشخيصه لنوع الأزمة التي تعاني منها الأمة؛ وهل أسباب هذه المعاناة هو تدهور الاقتصاد بسبب إحكام قبضة الاستعمار على مقاليد الحركة الاقتصادية المتمثلة في وسائل الإنتاج وسوق الاستهلاك؟ هل ترجع أسباب هذا الواقع إلى سوء الوضع السياسي في المجتمع العربي وتسلط العقلية العسكرية على الشعوب مع ما تتميز به العقلية العسكرية من

مخافة لمنطق العلم والسياسة فى كثير من الأحيان وأخذها بمنطق القوة والتسلط؟

هل ترجع هذه الأسباب إلى الجهل وتفشي الأمية، مما ترتب عليه ضياع حقوق المواطن وتغييب إرادة الأمة؟

أم تتجسد هذه الأسباب فى وطأة الاستعمار وإحكام قبضته على المنطقة - وخاصة بعد أن توطنت الصهيونية فى المنطقة وأخذت تمد خيوطها العنكبوتية إلى أصحاب القرار السياسى فى العالم الإسلامى بأسلوب الترغيب أحياناً وأسلوب التهريب أحياناً أخرى؟ ولا يخفى على من يتابع ما يجرى فى المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية أن هذا السبب الأخير قد يكون له الحظ الأوفر من بين الأسباب السابقة فى تدهور الوضع فى المنطقة العربية إلى الحد الذى وصلت إليه.

ولكن لابد لنا من وقفة نستدعى فيها تاريخ أمتنا، لنتعرف منه على المواقف التى مثلت منعطفات أو منحنيات فى مسيرة تاريخها ونتعرف أيضاً كيف اجتازت الأمة هذه المنحنيات بروح قوية وعزيمة لا تعرف الكلل ابتداءً من تاريخ الحروب الصليبية إلى حرب أكتوبر الأخيرة مروراً بدورات ومنحنيات بعضها يمثل الانكسار والهزيمة والبعض الآخر يمثل الانطلاق والبطولة والانتصار، وهذا هو شأن الأمم والحضارات، فلا يخلو تاريخ أمة من فترات الانكسار والهزيمة،

ولكن الأمم الناهضة هي التي تعرف كيف يتحول الانكسار على يد أبنائها إلى زاد ومشاعل تضيء لها الطريق إلى النصر والنهوض، كما انتصر صلاح الدين في حطين وسيف الدين قطز في عين جالوت، وكما انتصر المصريون على الحملة الفرنسية وحملة فريزر وفي حرب أكتوبر، فالعبرة التاريخية ينبغي أن تكون هي الدرس المستفاد من وقائع التاريخ بدلا من الانكفاء على الذات واجترار الأحزان.

نعم، قد يقال إن الظرف التاريخي قد تغير ولا بد أن يتغير نمط التفكير وأسلوب التحدي للواقع، هذا صحيح بل هو من أَلِزم الضروريات التي تجب مراعاتها فيما نحن بصدد، لكن مع ذلك تبقى الركيزة الأساسية في نهضة كل أمة وبناء مستقبلها... إنها إرادة الأمة. إنها إرادة التحدي للواقع، إنها إرادة النهوض وتجاوز هذه الأزمات وهذه الإرادة ينبغي ألا تتحمل مسئولية النهوض بها جهة واحدة ولا جهة ثقافية معينة ولا طرف معين من أطراف البناء الاجتماعي للأمة. إنها مسئولية الأمة كلها أفراد وجماعات حكام ومحكومين، مثقفين وعوام، لأن الخطر الذي يواجه الأمة لا يعرف الاستثناء أو الاختيار، فلا بد أن يسهم كل فرد في البناء بما يستطيع.

ومن قراءتنا لتاريخ النهضات للشعوب نجد أن عوامل النهوض التي أسهم بها الأفراد والجمعيات الأهلية كانت الأساس والركيزة لبناء النهضة وتشيد الحضارة، قبل أن تنهض بذلك الحكومات أو المؤسسات الرسمية للدولة وهذا واقع في كل بلاد العالم. وكان واقعا

في تاريخ أمتنا، من خلال الأوقاف الإسلامية على المشروعات الخيرية التي نهضت بها الأمة، فكان هناك أوقاف على مؤسسات التعليم ودور الحكمة التي يمثلها في عصرنا مراكز البحوث العلمية وأوقاف على دور اليتامى والمسنين وأوقاف على الأسيلة (جمع سبيل وهو مكان السقاية بالماء للمحتاجين) وأوقاف على الأرامل ومن لا عائل لهم، وأوقاف على الكلاب الضالة والحيوان الضال. فأين الدور الذي كانت تنهض به الأوقاف الإسلامية في عصرنا الحاضر...؟. أليس من المفيد إحياء دور الوقف، وحسن توظيف أمواله في تأسيس مراكز البحث العلمي، وابتعاث العلماء في جميع التخصصات بعثا لنهضة علمية نحن أحوج أمم الأرض إليها؟ لماذا لا ينهض الأزهر بالشروع في إعادة نظام الوقف الإسلامي من جديد، والبحث عن أفضل الوسائل لحسن توظيفه ليسهم في بناء الأمة وبعث نهضتنا من جديد...؟ لم يكن الوقف في الإسلام مقصوراً على المساجد والأزهر فقط كما قد يظن ذلك البعض، لقد شمل الوقف كل شئون الحياة علمياً واجتماعياً ولم تكن الدولة تتحمل أعباء مالية في قليل ولا كثير... فلماذا لم ينتبه الأزهر إلى إحياء هذه السنة، لتعيد إلى الحياة الإسلامية وجهها الاجتماعي المشرق، حتى تتفرغ الدولة لما هو أهم من ذلك، هذا جانب مهم على مستوى العمل والتطبيق يجب إحياءه، ولكن هناك جانباً آخر نود الإشارة إليه أن الوفاق الوطني بين صفوف الأمة عامل مهم في توحيد الكلمة والجهد وتوحيد المهمة والإرادة، فلم يعد هناك متسع للتشردم والتحزب الثقافي والسياسي؛ لأن القضية الآن هي أن

تكون أو لا تكون، والعدو متربص بالأمة كلها على اختلاف توجهات أبنائها، فلماذا لا تتوحد الكلمة أمام عدو لا يفرق بين اليمين أو اليسار، ولا بين تقدمي ورجعي، ولا بين ليبرالي ومحافظ، فالكل عنده يمثل طرفا واحدا ينبغي استئصاله. ولم يعد هناك متسع لمن يدعي أنه يملك الحقيقة المطلقة أو يدعي أنه وحده على صواب أو أنه الأحق بالسلطة واحتكارها دون غيره. لا بد من إعادة النظر في أنماط التفكير التي تأسست عليه بنية العقل العربي المعاصر.. لا بد من إعادة قراءة التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي الذي كون هذه البنية العقلية المعاصرة. لنقف على العناصر التي ينبغي أن نتخلص منها في مناهجنا الدراسية والإعلامية والثقافية ونتعرف أيضا على العناصر الضرورية التي نحتاج إليها في إعادة صياغة العقلية المستقبلية للأمة. ونحن من جانبنا لا ندعي أن ما نشير إليه هنا من عناصر يمثل الخط الذي لا يجوز تجاوزه وإنما هي علامات قد تضيء الطريق لصاحب القرار، وإن شئت فقل هي شمعة تنتظر من يضيف إليها ليزداد النور نورا ويكون نور على نور ويتضح الطريق أمام أصحاب القرار أكثر وأكثر.

ذلك أن المراجعة النقدية لمكونات العقل العربي المعاصر تكشف لنا عن أوجه قصور متعددة أصابت مناهجنا الدراسية بالركود والجمود، مما انعكس على عقلية الأمة فأصابها بشيء من السكون إلى الواقع والرضى به والالتفاف حوله ورفض تجاوزه.

ولكن القضية تحتاج إلى إعادة نظر ومراجعة شأن كل شيء يتعلق بشئون الحياة المتغيرة المتطورة... وينبغي أن نفرق في هذا السياق

بين ما اتفق عليه بأنه ثابت لا يتغير من مسائل الأصول وثوابت العقيدة،
و الذي يحتاج منا إلى مراجعة ومتابعة لضرورة التجديد والتغيير حسب
تحدد الظروف ومستحدثات العصر من مشكلات وقضايا تفرض
بطبيعتها البحث عن حلول ومواجهة، لأنها لم تكن موجودة في عصر
التأليف والتأسيس للعلوم الإسلامية، وكذلك الأمر بالنسبة لبعض
القضايا التي ورثناها في تراثنا وجعلناها ركنا أساسا في مناهجنا الدراسية
فإنها تحتاج أيضا إلى مراجعة لتتخلص من المسائل التي نشأت تحت
ظروف تاريخية معينة، وأصبحت تمثل عبئا ذهنيًا على المعلم، والمتعلم
وانتهت ظروفها التاريخية ومناسبتها الثقافية، وحدثت أمور وظهرت
إشكالات ثقافية لم تكن موجودة من قبل ينبغي أن تأخذ مكانها وتحتل
مكانتها في مناهجنا الدراسية، كما فعل الأقدمون تماما بقضايا
ومشكلات عصرهم.

وسوف أشير هنا إلى بعض القضايا التي أرى أهمية التوقف
أمامها بنظر نقدي أملا في الإصلاح.

محمد السيد الجليند

١ رمضان ١٤٢٦ هـ

٤ أكتوبر ٢٠٠٥

خلل في فقه الاعتقاد

من الأمور التي كان لها دور كبير في واقع الأمة الإسلامية هذا الخلل الخطير الذي أصاب الأمة في فهم عقيدتها والوقوف بهذه العقيدة عند مجرد ترديد الشهادتين وإقامة الشعائر الدينية دون ترجمة لهذه العقيدة ولا لمفرداتها إلى واقع يعيشه المسلم في صباحه ومساءه يحيا به المسلم سحابة نهاره وسواد ليله، وكيف اقتصر حظ المسلم من دينه على هذه الأمور النظرية والمظهرية معا، دون أن تملأ هذه العقيدة على المسلم حياته كلها فتشغل قلبه وتحرك جوارحه تحت مظلة الاعتقاد الصحيح علما وعملا. اعتقادا وسلوكا. على نحو ما كان عليه المسلمون يوم أن سادوا نصف الكرة الأرضية في أقل من قرنين من الزمان. ولا تحسبن يا أخي أن نهضة الأمم وحضاراتها - أية أمة - سادت أو قامت دون أن يكون الدافع والمحرك لها في نفوس أبنائها وفي عقولهم عقيدة واعتقاد، إن هذا الأمر لم تخل منه حضارة أية أمة على ظهر الأرض؛ مهما كان اعتقادها وعقيدتها صحيحة أو باطلة مقبولة في العقل أو مردولة فإن العقيدة ودورها في

نَهضة الأمم سنة من سنن التاريخ، وعليك أن تدور بناظريك في الحضارة الإنسانية قديمها وحديثها، لا تجد أمة نهضت وقامت لها حضارة إلا كان الدافع لذلك والمحرك له اعتقاد أبنائها، وإياك أن تغتر بزخرف القول الذي يردده البعض عن الحضارة الأوربية أنها حضارة علمانية لا دين لها ولا عقيدة. فإن ذلك من خلل الرأي الذي استقاه البعض من ظواهر شكلية تطفو على السطح أحيانا في الكتابات والسلوك الأوربي، والواقع أن هذه الحضارة مسكونة بعقيدة تحركها على محاور متعددة لتحقيق بذلك مقاصد وغايات تبنتها الحضارة الأوربية قديما ولا زالت تحركها إلى الآن، ولعل من أبرز هذه العقائد الأوربية:

- ١- التفوق والعنصرية الآرية الذي صرح به أفلاطون وأرسطو قديما وصرح به رينان ووزير خارجية إيطاليا حديثا.
- ٢- مركزية الحضارة الإنسانية التي طفحت بالتعبير عنه كتابات المستشرقين.
- ٣- نفي الآخر وعدم الاعتراف به، وهذه الركائز الثلاث تبناها السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية وجسدها في قالب العولمة الذي تروج له الآن. والحضارة الإسلامية

ليست بدعا في ذلك، فإن المحرك الأساسي لبنائها ونهضتها كانت وستظل هي العقيدة الإسلامية باعتبارها العامل المحرك للمسلم ليعمل ويكد. وللعالم المسلم ليبحث ويكتشف، وللحاكم المسلم ليقوم العدل ويسوس بالحق، وللغني المسلم ليأخذ بيد الفقير والمسكين؛ لأن الكل يستظل بعقيدة تجعل منه خليفة لله في أرضه، وأميناً على كونه يعبد العالم في محراب العالم، كما يعبد الساجد في محراب الكعبة، ويوم أن فقه المسلمون عقيدتهم على هذا النحو سادوا الدنيا وعملوها. سادوها بالعمل وعملوها بالعلم، فهل لنا أن نفقه عقيدتنا على نحو عملي كما كان عليه الأولون دون الاكتفاء منها بالشكليات والمظهر.

* * *

أ - خلل في درس الاعتقاد

ومن مظاهر الخلل الذي أصاب مناهجنا التعليمية قضية الفصل بين القضايا العقدية وتطبيقها على مستوى الدرس والتعليم وعلى مستوى السلوك والعمل، مما ترتب على ذلك انفصال في

ذهنية الدارس بين الاعتقاد والعمل، بين المبدأ والسلوك، إن هذا الفصل - مع اعترافنا بأنه مدرسي - قد خلق نوعاً من الانفصال وإن شئت فقل الانفصام بين الاعتقاد والسلوك، بين الإيمان والعمل، بين المبدأ والتطبيق، وتحولت مسائل الاعتقاد إلى نوع من التصديق القلبي الذي لا يمتد أثره إلى تحرك الجوارح لتعمل تطبيقاً لهذا الاعتقاد القلبي، وهذا بالتالي قد أدى إلى نوع جديد من الإرجاء الذي زحزح العمل والسلوك عن مكانته الطبيعية في ضرورة الارتباط والاقتران بالتصديق القلبي، هذا الارتباط الضروري الذي عبر عنه الرسول ﷺ في قوله: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل، فجعل عمل الجوارح علامة وآية دالة على صدق ما في القلب، ولعل ما نشاهده في حياة الناس وسلوكهم من الخلل الواقع في الاكتفاء من الإيمان بالشكل دون المضمون وبالظواهر الشكلية دون الوصول إلى الجوهر يرجع في أساسه إلى الخلل المنهجي الذي دأبت عليه مناهجنا الدراسية والتعليمية في الفصل بين القضية العقديّة وما يترتب عليها في السلوك والواقع.

ولقد تنبه إلى خطر هذه القضية الإمام أبو حامد الغزالي، وأشار في مقدمة كتابه إحياء علوم الدين إلى الخطر الذي يعاني منه الفرد المسلم والمجتمع المسلم من الانفصام الواقع بين الاعتقاد

والسلوك، وألف كتابه العظيم وسماه "إحياء علوم الدين" لينبه بذلك إلى أن عقيدة المسلم ما لم يحولها المرء إلى واقع وسلوك فهي عقيدة ميتة لا تنتج أثرا ولا تنهض بالمجتمع، ولذلك جعل مقدمة كتابه بابا مستقلا عن قواعد العقائد أو أصول الدين ثم أخذ يشرح في ثنايا كتابه المفردات والمسائل الجزئية التي تتفرع وتبني على هذه القواعد الكلية، وهذه المسائل الجزئية تشكل في مجموعها الدائرة الكبرى التي ينبغي أن يسير في فلكها المسلم لينفع بذلك نفسه كما ينفع مجتمعه، كما يظهر مدى حرص الإسلام على أن تكون حياة المسلم ذات هدف وغاية تستمد قيمتها من قيمة الإنسان في الوجود وغايتها من غاية وجود الإنسان نفسه باعتباره خليفة الله في كونه، لتتحول حياة المسلم إلى حركة وعمل دائم وبالتالي يتحول المجتمع كله من حالة السكوت والموات إلى حركة نابضة بالحياة، وما لم يتحول المجتمع المسلم من حالة السكون التي يعيشها ويحول عقيدته من مستوى الإيمان القلبي إلى سلوك وواقع يعيش في ظله الفرد والمجتمع لن تنهض الأمة من كبوتها؛ لأن قانون النهضة مرتبط بالأخذ بالأسباب وكفانا تمن بدون عمل.

* * *

ب- خلل في المنهج والتصنيف

لقد شغل كثيرون من علماء الأمة بالتأليف في تصنيف العلوم وتصنيفها؛ فعل ذلك الفلاسفة الكبار أمثال الكندي والفارابي وابن سينا والحوارزمي وابن خلدون، وجاء توصيفهم للعلوم في معظمه على نحو يقسم العلوم إلى علوم شرعية وغير شرعية أو علوم دينية ومدنية أو علوم الحكمة، أما العلوم الشرعية فتشمل العلوم التي تتصل بخدمة الكتاب والسنة وسمها البعض علوم الوسائل مثل النحو والصرف وعلم اللغة والتفسير والعلم بأسباب النزول والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وعلم القراءات، وكذلك ما أطلق عليه مجموعة "علوم الحديث" مثل مصطلح الحديث وعلوم المتن والسند.. الخ وعلم الفقه والأصول وعلم الكلام أو علم أصول الدين.

ويتضح من تاريخ نشأة هذه العلوم أنها كلها قد نشأت استجابة لحاجات دعت إليها الضرورة، التي تمثلت في ظهور اللحن في قراءة القرآن وظهور نوع من التفسير القرآني مخالف في بعض جوانبه ما أثر عن الرسول وصحابته، فهذه العلوم في مجملتها نشأت في أحضان الكتاب والسنة ولخدمة النص القرآني تفسيراً وتأويلاً وضبطاً لألفاظه - ومن هنا فضل المصنفون أن يطلقوا عليها "علوم شرعية" في

مقابل مجموعة العلوم المدنية، وترتب على هذا الوصف "شرعية" فهم خاطئ نشأ في أذهان المسلمين أن ما عدا هذه العلوم لا يوصف بأنه علم شرعي ولا يستحق هذا النسب الشريف. وبالتالي فإن الاشتغال بهذه العلوم المدنية يكون عملاً غير شرعي، بل ربما نسبته البعض إلى البدعة، ومعلوم أن العلوم المرتبة حسب هذا التصنيف هي علم الفلك والطب والرياضة والهندسة والكيمياء والفيزياء... الخ مجموعة العلوم الكونية التي نبغ فيها علماء كبار في تاريخ الحضارة الإسلامية أمثال البيروني وابن الهيثم والخوارزمي وجابر بن حيان.. وغيرهم من رواد هذه المدرسة العلمية، وكان نصيب هذه الكوكبة من العلماء الغم واللمز والنيل من عقائدهم لأن بعض المشتغلين بالعلوم وجدوا في مؤلفات هؤلاء أقوالاً وآراء لم يكن لهم علم بها وليس لديهم من الكتاب والسنة دليل على صحتها.

وترتب على ذلك أن نشأ نوع من الزهد والعزوف عن الاشتغال بهذه العلوم حتى إن أبا حامد الغزالي (حجة الإسلام) يقول: كنت أدخل القرية أو المحلة فأجد فيها أربعين فقيهاً ولا أجد بها إلا طبيباً واحداً من أهل الذمة، ولعل هذا كان بسبب التوصيف لهذه العلوم بأنها ليست مندرجة ضمن العلوم الشرعية. وهذا خطأ منهجي ينبغي أن يتدارك ويصحح، لأن العلوم الكونية جديدة بالوصف

الشرعي، مثل نظيراتها تماما. وأولى بالمشتغلين بها أن يوصفوا بأنهم يمارسون عملا شرعيا دينيا ندب إليه الشرع وأمر به، وقد جاء القرآن الكريم لينبه إلى أهمية وضرورة الاشتغال به فأمر به وجعل الرسول ﷺ طلبه فريضة، لأن العلم الكوني هو المدخل الطبيعي للتعرف على الله والتعرف على صفاته وهو النافذة الوحيدة لتسخير الكون لمصالح الإنسان وتحقيق خلافة الإنسان على أرض الله، وهو المفتاح العلمي لتحقيق خشية الله سبحانه: **قَالَ تَعَالَى: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٧﴾﴾** (١). أي بهذه العلوم السابقة في الآية. فانظر كيف جعل القرآن هذه العلوم مدخلا عمليا لخشيته سبحانه في عبارة بلاغية قاصرة خشية الله على العلماء بصنعتة.

* * *

ج - تجديد علم الكلام

تأسس علم الكلام الإسلامي للقيام بمهمة الدفاع عن

(١) سورة فاطر آية [٢٧].

العقيدة الإسلامي ضد مخالفها من منكري الأديان أو منكري النبوات، فأسس منهجه على أدلة العقل وبراهين المنطق في الدفاع عن صحيح العقيدة مستعينا في ذلك بنصوص القرآن الكريم وصحيح السنة المطهرة، وقد أبلى المتكلمون في ذلك بلاء حسنا وقد أدوا دورهم التاريخي في الذب عن العقيدة الإسلامية ودحض الأباطيل والأوهام التي كان يرددوها المخالفون، والذي يقرأ تاريخ هذا العلم الرائع يجد أنه كان يهتم بقضايا ومشكلات عقائدية أفرزتها طبيعة الاحتكاك الثقافي بين الحضارة الإسلامية وأصحاب الحضارات الأخرى والقضية معروفة لا داعي لتفصيل القول فيها.

وفي مطلع القرن الثاني الهجري وجدنا مشكلات علم الكلام تظهر واحدة تلو الأخرى مثل مشكلة خلق القرآن، مشكلة حرية الإنسان، مشكلة الذات والصفات، وكلما ظهرت مشكلة عقائدية كان يتصدى لها علماء الأمة - رضي الله عنهم أجمعين - بالتحليل العقلي والتفنيد والشرح وبيان ما فيها من خطأ وتدليس، ثم يوضحون الرأي الصواب الذي يؤيده العقل ويدل عليه الشرع بالحجة الواضحة والدليل المعقول، فأدوا رسالتهم كما فرضها عليهم دينهم أما الأجيال التالية ونحن منهم، فقد توقفنا حيث

وقفوا هم، وأخذنا نحلل ونفند ونشرح ونوضح المشكلات التي طرحت عليهم، والتي عاشوها في عصرهم وأهملنا تماما المشكلات التي نعيشها نحن في عصرنا، والتي تحتاج منا أن نحللها ونشرحها ونتولى تنفيذها وبيان وجه الحق فيها، وأن نجعل ذلك جزءا من مهامنا العلمية حتى ننهض بواقعنا كما نهضوا بواقعهم، بدلا من أن نكتفي باجترار آرائهم وتكرار أقوالهم، ولا يظن أحد أنني بذلك أقلل من شأن علماء الكلام أو أقلل من جهدهم كما قد ظن ذلك بعض إخواننا، ولكني أنعي على علماء عصرنا هذا السكون العقلي وأنه إلى وجوب أن نفعل كما فعل الأقدمون، وأن نعيش مشكلات واقعنا كما عاش علماء الأمس مشكلات واقعهم وقاسوها بمقياس العقل والشرع معا فأخذوا منها وردوا عليها، وقبلوا من غيرهم وأعطوا فلماذا لم نفعل مثل ما فعلوا هم؟ إن واقعنا المعاصر مزدحم بالمشكلات التي لها أثرها في عقول الناس وفي سلوكهم فلماذا لم نهتم بها ونجعلها جزءا من مفردات مناهجنا الدراسية؟ ليتعلم الشباب من ذوي الاختصاص وجه الحق فيها ولكي نصحح مفهومها عند الناس، خذ مثلا بعض المشكلات التي طفحت على السطح الثقافي مثل القول بتاريخية الأديان، تاريخية القرآن، تاريخية الأحكام الشرعية كالميراث مثلا. فقه الجهاد، العلو

والتطرف... الإنسان ومكانته، الحرية... الخ هذه المشكلات التي تحتاج إلى بحث دقيق وتحليل ونقد وتقديم الرأي الديني العقدي فيها، إن مشكلات علم الكلام القديم قد ظهرت في ظروف تاريخية تشبه تماما واقعنا المعاصر من وجوه كثير فتناولها العلماء الكبار فهما وفقها ونقدا وتفنيدا فلماذا لم نطرح هذه المشكلات المعاصرة وغيرها ضمن برامجنا الدراسية ليتعرف الشباب على أصول هذه المشكلات ومصادرها وظروف البيئة الثقافية التي أفرزتها وكيف ولماذا وفدت إلينا؟ وما هي الأهداف والمقاصد التي يبتغيها الغرب من طرح هذه المشكلات على العالم الإسلامي؟

* * *

د - عقيدة السببية

من عوامل الخلل في مسيرتنا التاريخية أننا أغفلنا تماما عقيدة الأخذ بقانون السببية أو الاعتقاد بالسببية على أنها دين وعقيدة وسنة من سنن الله في الكون، وأن القرآن الكريم قد نبه إلى أهميتها وضرورة الإيمان بها على أنها نظام ثابت في الكون ونظام مطرد ولا يتخلف أبدا إلا لتحقيق مشيئة الخالق سبحانه وتعالى عند إظهار المعجزة على يد

النبي ﷺ تصديقا له وتأييدا لرسالته، ألا فليعلم المسلم أن عصر الرسالات قد انتهى وختم بإرسال نبينا ومعلمنا محمد ﷺ، وليعلم المسلمون أيضا أن عصر المعجزات قد انتهى بوفاته ﷺ ومن دلائل الإيمان به والتصديق برسالته أن نعتقد اعتقادا جازما أن سنن الله ماضية ومطرودة لا تتخلف وأن من طلب النهضة بغير الأخذ بأسبابها فقد طلب المستحيل، ولذلك أنه هنا إلى أهمية الأخذ بالأسباب كمدخل ضروري للوصول إلى الغايات وتحصيل المقاصد، بل إنني أقترح أن تحتل عقيدة السببية مكانتها ومكانها في مناهجنا الدراسية كجزء أساسي من مفردات المنهج الدراسي حتى ينشأ الجيل وهو مؤمن بهذه القضية كإيمانه بالله وبسننه المطردة. ومما نلفت النظر إليه أن عقيدة السببية ثابتة ومطرودة في عالم الطبيعيات كما هي ثابتة ومطرودة أيضا في عالم الاجتماع البشري، ولا فرق في ذلك بين نتائج القانون في العالمين الطبيعي والبشري.

فإن ذلك كله يخضع لعقيدة السببية التي عبر عنها القرآن الكريم بالسنة والسنن قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(١)

(١) سورة آل عمران آية [١٣٧].

وللأسف الشديد فإن المسلمين قد أهملوا تماما الإيمان بعقيدة السببية، فلم يعتبروها في مسيرتهم التاريخية ولم يعتبروا بسنن الأولين كيف قامت الحضارات ولماذا اندثرت، وكيف قامت الممالك؟ ولماذا انهارت لغياهم عن الاعتقاد بأن سنة الله جارية لا تتخلف أبدا، ومن المهم أن نشير هنا إلى أن عقيدة الأسباب محايدة لا تعرف المجاملة ولا المحاباة، فمن أخذ بأسباب النصر لا بد أن ينتصر حتى ولو كان غير مسلم، ومن أخذ بأسباب النهضة لا بد أن ينهض مهما كان دينه واعتقاده حقا أو باطلا صوابا أو خطأ، ومن أهمل هذه العقيدة فلم يأخذ بها لا بد أن يجني ثمرة هذا الإهمال تخلفا وهزائم وهوانا ومذلة.

وأخيرا فانظر بطرفك في الأمم الناهضة في عصرنا لتتعلم منها كيف أخذت بأسباب النهضة فنهضوا مع أن منهم من يعبد البقرة - حتى الآن - ومنهم من يعبد النار - حتى الآن - ومنهم من لا دين له لنعلم من ذلك أن عقيدة السببية دين والتزام نبهنا إليها القرآن وحذر من إهمالها، فإذا أردنا النهضة فعلينا أن نبحث عن أسبابها النفسية والروحية والمادية. لتستقيم مسيرة النهوض.

* * *

هـ - خلل في إرادة النهوض

مما لا ريب فيه أن واقع الأمة الإسلامية المعاصر يمثل منعطفًا تاريخيًا لم يحدث أن عاشته الأمة من قبل؛ تفرقا في الرأي والمهدف. اختلافًا في الأهواء والانتماءات، وبالتالي تحزبًا وتعصبا إذ كل حزب بما لديهم فرحون مما يسر لعدوهم أن يلتهم أوطانهم بلدا وراء الآخر بعد أن حدد مواقف الأقطار الأخرى مستعملا معهم سلاح الترغيب والترهيب، ولا شك أن هذا الواقع المؤلم قد طرح على عقول المفكرين أسئلة عديدة: كيف ولماذا وصل الأمر بالأمة الإسلامية إلى هذا الواقع المتردي؟ مع أنها تملك وسائل النهوض التي حرم منها كثير من البلاد الأخرى، إن الأمة الإسلامية تملك الأرض والماء، وتملك الثروة والطاقة، وتملك العقول وأصحاب الرأي، ومع ذلك ما زالت معظم البلاد الإسلامية تأكل مما يزرع غيرها، وتلبس مما ينسج غيرها، وتستعمل الآلات التي صنعها غيرها. فأين الخلل إذن، لماذا وإلى متى سيظل العالم الإسلامي يحيا على هامش التاريخ بعد أن كان صائغا له؟ ولعل من أهم الأسباب التي أوصلت الأمة إلى هذا الواقع المؤلم افتقاد الإنسان لإرادته وذاتيته وخاصة أهل الرأي والفكر في الكثير من البلاد الإسلامية. فإن إرادة النهضة لا يجسدها في الواقع إلا

عقول هؤلاء العلماء ولا يترجمها إلى حياة يعيشها الإنسان إلا فكر هؤلاء العلماء، وعلى أيديهم يتم النهوض بالأمة ؟

وهنا يأتي السؤال التاريخي. هل هيأت الأمة الإسلامية لعلمائها ومفكرها البيئة النفسية والمناخ الفكري الصالح لكي يشغلوا أنفسهم بقضايا الأمة ؟ عليك أن تدور بناظريك في موقف الأمم الناهضة من علمائها ومفكرها وقضايا البحث العلمي، وقارن ذلك بموقف الأقطار الإسلامية من علمائها ومفكرها لتجد الإجابة على السؤال المطروح... كيف ولماذا وصل واقع الأمة الإسلامية إلى هذا الوضع المتردي. وأظن أنه من غير المقبول هنا التذرع بالأوضاع الاقتصادية للدول الإسلامية لأن من بين هذه الدول الإسلامية من يملك من الثروة ما لا نظير له في البلاد الناهضة. ولكن هم عرفوا كيف وأين تنفق الأموال وتستثمر الثروات أما نحن فقد تاهت ثرواتنا في أضاير النزوات والأهواء الشخصية. ويني أن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

* * *

و - أثر الاستبداد السياسي في إعاقة النهضة

أعني بالاستبداد هذا المعنى الجامع لكل مظاهر الطغيان الذي

بمارسه فئة من البشر نصبوا أنفسهم وكلاء عن الله في توزيع ثوابه وعقابه على من يريدون من الناس بدون ضوابط ولا معايير إلا التنفيس عن رغبة جامحة، وليس البلاء في ذلك قاصرا على نظام حكومي معين بل هو شائع في معظم المؤسسات الاجتماعية والحكومية في شتى بلاد المسلمين، ولقد عرف الكواكبي هذا النوع من الاستبداد بأنه "تصرف" يقوم به فرد أو جماعة في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة" أو هو تصرف الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون" وفشو ظاهرة الاستبداد في العالم الإسلامي قد أثر في نهضة الأمة تأثيرا سلبيا، لقد قتل الهمة والإرادة والعزيمة في الإنسان. فالإنسان حين يخالجه الإحساس بضياح حقوقه وامتهان كرامته ومحاصرة عقله وفكره ورأيه واستلابه حق التعبير والمشاركة في تدبير شئون وطنه وقيادة الأمة ليحتل مكانه صاحب الهوى وذو الثقة فيسند الأمر إلى غير أهله، والويل كل الويل لأمة أسند الأمر فيها إلى غير أهله. عند ذلك تسود النزعات الفردية وحلول الظلم والطغيان محل العدل والمساواة، هذا هو النذير العريان في خراب العمران وسقوط الدول. قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ ۚ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۖ﴾^(١)

^(١). وقال سبحانه: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۖ﴾^(٢).

(١) سورة الكهف آية [٥٩].

(٢) سورة إبراهيم آية [١٥].

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين، وهذه إحدى سنن الله في إقامة الممالك وانهارها، فإن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة فهذا قانون عام في انتظام الملك أو انهياره، ولا علاقة لهذا القانون الإلهي بدين أو ثقافة، فمتى وجد الظلم والاستبداد في أمة فانتظر نهايتها المؤلمة، واعلم أن ذلك مؤذن بخراب الدولة يقول ابن خلدون: (فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران: اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أن مصيرها وغايتها وانتهائها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء على الرعية - يكون انقباض الرعايا عن السعي والاكتساب وإذا أحر المرء على العمل تحت سيف، الظلم فإنه لا ينتج إلا مقتلة للوقت والجهد.

* * *

ح- الإحساس بالهزيمة النفسية

يعيش المسلم المعاصر حالة من الانهزامية النفسية، يستشعر خلالها نوعاً من الإحساس بالدونية إذا ما قارن واقعه المعاصر بواقع الأمم الناهضة، وهذه الهزيمة النفسية تمثل هدفاً مقصوداً وغاية منشودة يسعى العدو إلى زرعها في المجتمع المسلم بصفة عامة

والأمة العربية بصفة خاصة، وقد يستعين على تحقيق هدفه الخبيث ببعض الأقلام التي تربي أصحابها على موائد الاستعمار، ليكونوا وكلاء عنهم وسماصرة لترويج فكرهم الانهزامي بين شباب الأمة، وقد يسعون إلى ربط هذا التخلف الذي يعيشه المسلمون بتراثهم وقرآنهم، ويجعلون من الدين سببا في إعاقة النهضة كما قال ويقول ذلك كثير من المستشرقين، ولا شك أن الشعور بالدونية والإحساس النفسي بالانهزامية مرض خطير ينبغي اقتلاعه من بين صفوف الأمة، لأن ذلك قد يؤدي إلى شيوع روح اليأس بين الشباب، فيقعدهم عن العمل والنهوض والانكفاء على الذات وعدم المبادرة وقتل روح الابتكار والإبداع، وينبغي محاربة هذه الظاهرة والقضاء عليها بقراءة تاريخ الأمة ومعرفة النوازل التي مرت بها، وحاولت إعاقة حركتها وكيف حول المسلمون هذه النوازل إلى منطلقات لحركة الأمة لتواصل مسيرتها من جديد، وهذا يقتضي من المفكرين أن يعملوا على بث روح القوة والاعتزاز بالذات ومعرفة أن للحضارات أعمارا وأن سنة التدافع ماضية بين البشر وهي التي تحرك التاريخ وتصنعه وتلك الأيام نداؤها بين الناس، وإرادة الأمة للنهوض لا بد لها من قوة دافعة تحركها لتحقيق غايتها المقصودة وهذا لا يتم إلا بالقضاء على هذه الروح الانهزامية والإحساس بالدونية، والأهم من ذلك أن يعي الجيل الدرس المستفاد يأخذ العبرة من الواقع ولا يترك الأحداث

تمر في غفلة منه دون أن يتساءل عن الأسباب، إن عقدة الإحساس بالدونية تمثل عاملاً خطيراً يعوق إرادة النهضة ويقضي على روح المبادرة، فلا تنهض النفس للحركة ولا يكون لها نزوع إلى العمل والتغيير، بل تكون أقرب إلى الخمول ومحبة الكسل وتفضيل القعود على النهوض، ولقد حذر كثير من مؤرخي الحضارات من خطر هذه الظاهرة النفسية التي تنتاب الشعوب المهزومة، وما يترتب عليه ذلك من حدوث خلل واضطراب في إرادة الأمة يترتب عليه محاولة الاكتفاء بتقليد المغلوب للغالب واتخاذ المنتصر مثلاً وقدوة للمهزوم، وما بالك إذا كان الغالب في زماننا هو الذي يفرض علينا ضرورة تقليده ومتابعته حذو القذة بالقذة، وإن تغيب إرادة الأمة للنهوض نتيجة هذا الإحساس بالدونية يشكل نذيراً بفناء الأمة وانحناء شخصيتها وفقدان هويتها وقتل خصوصيتها.

* * *

ز- خلل في صلتنا بكتاب الله

لقد نزل القرآن الكريم على العرب وهم أمة أمية تعيش في جاهلية عمياء فأعاد صياغتها من جديد، نفسياً وعقلياً ووجدانياً حتى كانت المعجزة التي أذهلت العالم، حيث استطاع النبي ﷺ أن يفتح بهذه القلة القليلة في العدد والعدة بلاد الفرس والروم وأن

ينشر دعوة الإسلام شرقاً وغرباً، لأنه أحسن بناء للإنسان وأجاد تربية الأمة التي صاغها القرآن صياغة جديدة، فحملت حضارة القرآن إلى العالم كله، لأنهم حين قرأوا القرآن وفقهوا مقاصده وغاياته تحولوا تلقائياً من عصبية للقبيلة إلى الشورى، ومن ظلم الجاهلية إلى عدل الإسلام، قال أبو عبد الرحمن السلمي: كنا نتعلم العشر آيات من القرآن ولا نتجاوزها حتى نعلم ما فيها من علم وعمل" هكذا حتى صار الواحد منهم في سلوكه وفي علاقاته قرآناً يمشي على الأرض، ولقد جسدت السيدة عائشة رضي الله عنها هذا المعنى التربوي النبيل حين سئلت عن الرسول ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فكان ﷺ يعيش بقلبه ووجدانه في جو قرآني ويحيا في سلوكه بقيم القرآن، فكان عقله وقلبه مع الله وبالله حين يقرأ آيات تتحدث عن الله، ومع الكون في آياته الباهرة وآلائه في تدبر وتفكر حين يكون الحديث عن آيات الله الكونية وأسرارها، ومع دروس التاريخ وعبره حين يكون الحديث عن الأمم الماضية وتاريخهم ومصائرهم، ومع الآخرة وأحوالها حين يكون الحديث عن يوم القيامة ومصائر عباد الله فيها، فكان ﷺ يعيش مقاصد الآيات وأهدافها، ولا يكتفي بمجرد تلاوة اللسان التي قد لا تتجاوز الحناجر. وعلى هذا النحو من الفقه والتدبر والمعايشة كان موقف الرسول ﷺ وصحابته من القرآن الكريم تلاوة وتأملًا ذكرًا

وفكرا حتى تشربت قلوبهم معاني القرآن الكريم، فصاغت الأمة كلها صياغة قرآنية.

وما نجده في واقعنا المعاصر يختلف تماما عما كان عليه جيل الصحابة والتابعين، حيث تحول اهتمام المسلمين بالقرآن إلى ممارسات شكلية وأعمال مظهرية ليس لها أثر في سلوك الفرد ولا في تشكيل وجدان الأمة، لقد انصرف اهتمام المسلمين بقرآنهم إلى مجاهدات مضية في التلاوة وضبط مخارج الحروف بين حلقي وشفوي وهوي ومجاهدات مضية في كيفية الغن والمد المتصل والمد المنفصل، وما إلى ذلك مما يتصل بالمحافظة على شكل الكلمات القرآنية متلوة على اللسان. أما محاولة الفهم والتأمل وتحويل معنى الآية إلى واقع يعيشه المسلم فهذا قد انصرف عنه جهود الأمة حتى حل بها ما حل، ونجد في تاريخ علم الكلام نمطاً من النظر المذهبي والتأويل الكلامي لآيات القرآن الكريم ممثلاً في موقف الفرق الإسلامية من المعتزلة والأشاعرة من الآيات القرآنية، التي يستدلون بها على صحة مذهبهم الكلامي، وفي نفس الوقت يوضحون بها خطأ مذهب المخالفين لهم من الفرق الأخرى، ولعل أكبر مثال على ذلك موقف الفريقين من آيات أفعال العباد والقضاء والقدر، وموقف الفريقين من آيات الهداية والضلال، وموقف الفريقين من آيات الحسنه والسيئة الخ.

فإن هذه القضايا - وغيرها كثير - قد وردت الآيات القرآنية بشأنها في سياقات متنوعة ودلالات مختلفة مما يتطلب من المتأمل والمفسر أن يفهم معنى الآية في ضوء سياقها الذي سيقى من أجله، وفي ضوء دلالتها القرآنية في هذا السياق بعينه دون غيره، لأن دلالة الكلمة تختلف ضرورة في فهم معناها تبعاً لسياقها في داخل النص المعين عن معناها في سياقات أخرى، ومحاولة الاستدلال بها على أمر آخر تختلف عن سياقها داخل النص المعين خطأ كبير، قد يترتب عليه أن يفهم البعض أن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً، ويضرب بعضها بعضاً، وهذا ما أدى إليه موقف الفريقين فعلاً، حيث تبين كل منهما موقفاً فكرياً مسبقاً، ثم حاول فهم آيات القرآن في ضوء موقفه الفكري السابق، ليستدل بذلك على صحة موقعه من جانب وخطأ موقف المخالف من جانب آخر مع أن الآية القرآنية لو تأملها المتكلم في ضوء سياقها داخل النص وفي ضوء دلالتها اللغوية، لما كان بين الفريقين هذا الخلاف المذهبي الكبير الذي أثار الفرقة والخلاف بين المسمين مفكرين وأتباع على سواء، وسوف أضع بين يدي القارئ بعض النماذج التي تبين كيف تعامل المتكلمون مع آيات القرآن، وكيف أدى لهم هذا المنهج إلى خلاف ما زال المسلمون يكتوون بناره إلى الآن.

هذه بعض المعوقات لمسيرة الأمة نحو نهضتها المرجوة ولا بد

لتصحيح المسيرة أن تصح الإرادة من الجميع خاصة أولى الأمر وهم — الحكام والمثقفون — في ضرورة النهوض وأولى هذه الخطوات التي ننبه إلى أهميتها هنا هي وحدة الإرادة قبل الحديث عن إرادة الوحدة. ففي وحدة الإرادة تتجسد أهداف الأمة ويتعالى الجميع على الخلافات السياسية والمذهبية والعرقية، لأن الظرف الذي نعيشه أكبر من كل هذه الخلافات، ونجد في العمل على إحياء مفهوم الأمة المفتاح الحقيقي للتعالي على هذه الخلافات، والعمل على أن نوحّد إرادتنا حول ما يتفق عليه الجميع وهي مساحة كبيرة ويعذر بعضهم بعضاً فيما يختلفون فيه وهي مساحة ضئيلة ولا بد منها في كل الثقافات وهي سنة الله في خلقه ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولكن لا ينبغي أن نجعل هذه الخلافات وسيلة لنيل الآخر من ثقافتنا ومحو هويتنا، لأن الرهان الذي تحمله طبيعة المعركة هي أن نكون أو لا نكون.

والله من وراء القصد، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.



تكريم الإنسان دين وعقيدة



إن نهضة الأمم - أي أمة - من كبوتها لا بد لها من فكر نظري تنطلق منه وبرنامج عمل يلتزم به الفرد وتؤمن به الجماعة وتستند إليه في مسيرتها التاريخية، ولا بد لها من غاية مأمولة تسعى إليها وتجعلها هدفا مقصودا تسعد بتحصيلها، ولا بد لها كذلك من عقيدة تصدر عنها تمثل الباعث والمحرك لأفراد الأمة وجماعتها، وتمثل في نفس الوقت مركز الدائرة أو قطب الرمح لحركة المجتمع كله وعلى سبيل المثال، فإن أمريكا في سياستها المعاصرة تصدر عن عقيدة راسخة تؤمن بها وتعمل على إذاعتها بين الشعوب، وتحاول جاهدة إقناع العالم بها، ألا وهي عقيدة - السيادة الرسالية - إنها تعتبر نفسها صاحبة رسالة في هذا العالم المعاصر، رسالة احتواء العالم ثقافيا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا باسم الديمقراطية حيناً،

وباسم الحرية حيناً، وباسم تحرير الشعوب حيناً، وهذه العقيدة ترسخت في عقول ساكني البيت الأبيض جيلاً بعد جيل ورئيساً بعد رئيس؛ فلقد صرح رؤساء أمريكا كارتر، وريجان، وبوش الأب، وأخيراً بوش الابن الذي أعلن في مؤتمر صحفي أنه جاء بقواته إلى شعب العراق، تنفيذاً لأوامر الرب وبمباركة من العناية الإلهية ليحرر شعب العراق ومن يتابع القرار السياسي الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن يجد هذه العقيدة راسخة في العقول، وتمثل عاملاً محركاً للقرار السياسي الأمريكي، وخاصة في مواقفه التاريخية مع إسرائيل وضد القضية الفلسطينية، ولا تخلو أمة من الأمم من الإيمان بعقيدة راسخة في أذهانها تؤمن بها وتجعلها منطلقاً لحركتها التاريخية في بناء هضمتها ومصدر حضارتها، وعليك أن تقرأ تاريخ الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً فلا تجد حضارة منها إلا وراءها عقيدة تصدر عنها، وتؤمن بها، وتجعلها نبراساً وضياء لها في مسيرتها التاريخية؛ حدث ذلك في الحضارة المصرية القديمة، وحضارة اليونان والفرس والرومان قديماً وحدث ذلك في الحضارة الغربية والأمريكية المعاصرة، فكانت العقيدة عاملاً محركاً لمسيرة هذه الحضارات كلها، ولا فرق في ذلك بين هذه العقائد سواء كانت صحيحة أو باطلة، مقبولة في منطق العقل

أو مردولة والأهم من ذلك عند أصحابها أنهم يؤمنون بها ويعتقدون صحتها ويتخذونها منطلقاً لحركتهم التاريخية ويحددون في ضوءها المعالم الرئيسية في علاقاتهم بالأمم الأخرى.

والحضارة الإسلامية بدورها ليست بدعاً من بين هذه الحضارات، ولا هي شاذة عنها، فهي بدأت مسيرتها التاريخية حاملة لواء عقيدة سماوية ذات حقيقتين متميزتين ومتكاملتين معا في نفس الوقت، لا يمكن فصل إحدهما عن الأخرى لا في الاعتقاد القلبي والتصديق العقلي، ولا في السلوك العملي والعلاقات الاجتماعية، وللأسف الشديد فإن الخلل قد أصاب هاتين الحقيقتين في مسيرتنا التاريخية.

أما الحقيقة الأولى: فقد جسدها عقيدة التوحيد الخالص لله سبحانه التي ملأت - وينبغي أن تملأ - على المؤمن قلبه ووجدانه، التوحيد الخالص - ينبغي أن يتكيف في ضوءها سلوك المؤمن، ويحدد علاقاته مع الله، ومع نفسه، ومع الكون، ومع الإنسان، فإذا أحب أو كره، إذا وإلى أو عادى، إذا اقترب أو ابتعد، إذا تكلم أو سكت، فإنما ينبغي أن يكون ذلك كله من أجل الله الذي يمثله في دنيا الناس سلوك يقوم على كلمة الحق، وقول الصدق، وشهادة العدل، وأداء الأمانات، وهذه المعاني الأربعة يتفرع عنها مفردات ولواحق تنتظم حياة الناس كلها كما تنتظم علاقة الحاكم



بالحكم، والتي من أهم وظائفها سيادة هذه المعاني الأربعة وشيوعها لتسود حياة الأمة كلها.

أما الحقيقة الثانية فقد جسدها القرآن الكريم في عقيدة تكريم الإنسان الذي استخلفه الله على هذا الكون، وجعله أفضل المخلوقات جميعها، وخلق له صورته، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تكريماً وتفضيلاً له، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٨﴾﴾^(١).

وهذه الميزة الكريمة التي اختص الله الإنسان بها ليست ميزة لجنس دون آخر ولا للون دون آخر ولا لعرق دون آخر، وإنما هي منزلة تكريم وتفضيل وتشريف للإنسان من حيث هو إنسان أيا كان هذا الإنسان بصرف النظر عن جنسه ودينه وعرقه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٩﴾﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ

(١) سورة ص: ٧١ - ٧٣.

(٢) سورة الإسراء: ٧٠.

وَجَعَلْنَكُمْ سُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِّتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ ﴿١﴾ .

وقال ﷺ في خطبة الوداع تقريراً وتعليماً لهذه العقيدة
القرآنية: « أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم
لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على
أسود. الناس سواسية كأسنان المشط » ^(٢).

وحين سادت عقيدة التكريم للإنسان، وتشربتها قلوب
المسلمين في صدر الإسلام تلاشت الفوارق الطبقية، وانمحت
عادات الجاهلية التي كانت تسود العلاقات الاجتماعية بين الناس،
وأخذ كل مسلم يستمد عزته من عزة خالقه، وأصبح ميزان
التفاضل بين الناس مختلفاً عما كان عليه قبل الإسلام فليس المال
ولا السلطة، ولا حسب القبيلة ولا نسبها، كل ذلك لا يزن عند
الله جناح بعوضة في المفاضلة بين السيد والعبد، وإنما جاءت عقيدة
تكريم الإنسان لتؤسس معياراً آخرًا للمفاضلة بين بني البشر،

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) وردت خطبة الوداع في مواضع كثيرة من كتب الحديث وبألفاظ متقاربة
انظر: مسند الإمام أحمد.

جسدتها الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾^(١)، هذا المعيار الجديد في المفاضلة جعل عبد الله بن مسعود (وهو نحيف خفيف الوزن) يزن عند الله جبل أحد، وجعل بلالا الحبشي وهو العبد الأسود أفضل عند الله من سادة قريش ووجهائها، ولقد ترتب على إيمان المسلمين بهذه العقيدة أن عاش المسلم آمنًا في سرية معافي في ماله وفي عرضه وفي بدنه، فاستقرت نفسه واطمأن قلبه، وتحركت همته للتعمير في الأرض والإنتاج والتنمية، فبنوا حضارة وأسسوا نهضة عمروا بها أركان المعمورة.

أما في العصر الراهن فقد غابت عنه عقيدة تكريم الإنسان وابتعدت بها السبل عن مصدرها الإيماني العقيدي، لتكون رهنا بإرادة الشخص وخاضعة لأهوائه وعلاقاته، فلا تضبطها قواعد العقيدة ولا تحركها عوامل الإيمان، وعادت إلى المجتمع الإنساني مرة أخرى عادات الجاهلية الأولى، التي فرضها القوى على الضعيف بقوة السيف والمدفع، ليفرض على الناس الإيمان الزائف بأفضلية جنس على جنس، أو لون، على لون أو عرق على عرق، وأحيانًا بسيف السلطان ليستذل الحاكم بسلطانه رقاب الرعية، فلا يسمعون في مملكته إلا صوته، ولا يرون إلا رأيه، ولا يسبحون إلا بحمده وقدره، وبين

(١) سورة الحجرات: آية [١٣].

صوت المدفع والصاروخ في العلاقات الدولية وسيف السلطان في علاقات الراعي بالرعية ضاعت عقيدة التكريم للإنسان، التي هي شطر عقائد الإيمان، واحتل مكانتها في عقول الناس الشعار السلطوي الفرعوني "ما أريكم إلا ما رأي" الذي أصبح شعارا دوليا رفعتة الدول الكبرى عنوانا لسياستها مع الدول الأخرى، كما رفعه في نفس الوقت كثير من الحكام عنوانا لسياسة شعوبهم، وبين هذا وذاك ضاعت عقيدة التكريم التي منحها القرآن للإنسان، وانمحت معالمها تحت سطوة سيف السلطان وقذائف الدول الكبرى.

وقد تجسد هذا الشعار الفرعوني في الحركة التاريخية المعاصرة، وفي العالم الإسلامي بصفة خاصة.

لقد انمحت عقيدة التكريم للإنسان من قاموس العالم الإسلامي على مستوى الجماعات وعلى مستوى الأفراد، وأصبح الفرد المسلم غير آمن لا على نفسه، ولا على ماله وولده، بل ولا على وطنه، وانعكس هذا الموقف النفسي في سلوك الأمم والأفراد خوفا وهلعا، كما انعكس ذلك أيضا في داخل المجتمع الواحد على سلوك الأفراد، فأصبح كل فرد مشغولا بالبحث عن مصدر يجد فيه الأمن والأمان لنفسه وولده، وترتب على ذلك كثير من الآثار النفسية السيئة، وخاصة في حياة العلماء والمفكرين وأصحاب الرأي والكلمة، وبذلك تلاشى من المجتمع



أول عامل من عوامل النهضة وأهم أسس بناء الحضارة وهو الاستقرار النفسي والأمان القلبي لقادة النهضة وروادها، وهم العلماء وأصحاب الرأي، واختفى من بين صفوف الأمة أصحاب العقل المبدع، والرأي الحر، والكلمة الصادقة، ليحتل مكانهم ومكانتهم من يجيدون فن التزلف والتسلق متسلحين في ذلك بأخطر جهاز عرفته الإنسانية في عصرنا وهو رفع الشعار الذي تتبناه السلطة الحاكمة عبر أجهزة الإعلام المسخرة لأصحاب النفوذ فقط دون غيرهم، وفي إصرار عجيب ظلت هذه النماذج المتسلقة تدندن حول الشعار الذي ترغب فيه السلطة تأصيلاً له في عقول الناس وتزيينا وتزلفاً، وما أكثر وسائل الترغيب والترهيب التي اتخذها حكام الشعوب الإسلامية في عصرنا هذا، حتى يجعلوا من آرائهم وشعاراتهم عقائد وأدياناً يضحى في سبيلها الشعب بالأرض والثروة، فضلاً عن النفس والروح وما تجربة العراق منا ببعيد.

إن عقيدة تكريم بني الإنسان حقيقة دينية ثابتة وأصلية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي الخطوة الأولى التي يعترف خلالها الإنسان بذاتيته ومكانته، ودوره في تحريك وعي أمته ويقظتها، لينطلق منها إلى بناء النهضة وتشديد أركان الحضارة، وترسيخها لهذه العقيدة الدينية وقف الرسول ﷺ أمام الكعبة ليخاطبها قائلاً لها: «والله إني أعلم حرمتك عند الله ولكن المسلم

أعظم حرمة عند الله منك»^(١). وأعلى مكانة.

ومن منطلق هذه العقيدة الدينية في تكريم الإنسان، نهض الرسول واقفا حين رأى جنازة تمر أمامه وكانت جنازة يهودي فقال له أصحابه يا رسول الله إنها جنازة يهودي. فقال ﷺ: «أليست نفسا»^(٢). تنبيهاً إلى حرمة النفس الإنسانية وعلو شأنها عند الله. ومن هذه العقيدة الدينية في تكريم الإنسان نزل القرآن الكريم، ليعاتب الرسول ﷺ في حادثة ابن أم مكتوم المشهورة فقال سبحانه وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۚ﴾^(٣).

إن تكريم الإنسان في الإسلام عقيدة ودين عاشها المسلمون في صدر الإسلام عقيدة وسلوكاً، علماً وعملاً، فتلاشت بينهم الفوارق الطبقية والفروق الاجتماعية، وأصبح الكل له دوره في بناء النهضة، وله ذاتيته ومكانته التي فرضت عليه الإحساس بالولاء للأمة وللمجتمع وللحاكم، والشعور بالآلام الجميع، وآمال الجميع وتوحد في عقول الجميع الهدف والغاية والمقصد، وكانت كلمة

(١) ورد الحديث في البخاري كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودي.

(٢) انظر الحديث في: الترمذي كتاب البر، ابن ماجه في الفتن، الدار في المناسك.

(٣) أول سورة عبس.

الحاكم ورأيه ليس تعبيرا عن هوى شخصي أو تعصبا لميول حزبية أو قبلية، وإنما كانت تعبيرا عن أهداف أمة وتحقيقا لمقاصد دين وعقيدة، فكان إذا أمر أو نهى كان الجميع يلي النداء بأذن صاغية وعقول واعية، لأن الجميع يؤمن بدوره ومكانته في البناء الحضاري ونتج عن هذا شعور عام بالانتماء للجماعة والولاء للأمة، دفاعا عن مصالحها وجهادا في سبيل نهضتها وبناء حضارتها، فنبغ الطبيب والمهندس والفيلسوف والفقيه والرياضي والفلكي، وأسهم الجميع في بناء حضارة كانت لغتها العربية ودينها الإسلام، أظلت العالم قرونا طويلة من الزمن، أسعدت العالم ونشرت فيه لواء الأمن والأمان اللذين هما جناحا الاستقرار، وحين فقد العلماء وقادة الرأي عامل الاستقرار النفسي، واختفت من حياة الأمة عوامل الأمن والأمان، وتلاشت عقيدة تكريم الإنسان، وخاصة من على مسرح العلاقات بين حكام الأمة الإسلامية ومحكومياتها واختفت تبعا لذلك همة كل عالم وإرادة كل مفكر مبدع، انقلبت الأمور في أقطار الأمة الإسلامية رأسا على عقب، فبدلا من أن يبحث الحكام عن أصحاب الرأي وقادة الفكر، ليستعينوا بهم ويستضيئوا بآرائهم، وليكونوا أهل الشورى لهم، وبدلا من ذلك رفع معظم الحكام سيف الترغيب والترهيب في وجوه العلماء -

وهو سلاح تاريخي - ليسود بين الناس الشعار الفرعوني " ما أريكم إلا ما أرى"، فانزوى أهل الفكر وأصحاب الرأي عن مسرح الحياة السياسية والاجتماعية، ليحتل مكانتهم أهل الثقة ليزينوا لأصحاب السلطان ما هم عليه من سوء الرأي وسوء العمل، حتى ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهذه الظاهرة الاستبدادية تعم كثيرا من البلاد الإسلامية، فلا تجد شعباً من الشعوب الإسلامية إلا قد انمحن من قاموسه العملي عقيدة تكريم الإنسان على مستوى القرارات أحيانا، وعلى المستوى العلاقات الاجتماعية أحيانا.

وليس المقصود من عقيدة التكريم التي نبهنا إليها القرآن افتعال المواقف التي تلجأ إليها بعض المؤسسات في العالم الإسلامي، تكريما لشخص مرموق أو تأيينا لرحيل آخر، وإنما المقصود بذلك خلق البيئة الاجتماعية التي يحس الإنسان فيها بكرامته، بعيداً عن المواقف الطبقية أو الفئوية أو الحزبية، وبعيداً أيضاً عن التطلعات الشخصية المتمثلة في الأمور المالية أو الاقتصادية. إن عقيدة التكريم للإنسان التي نبه إليها القرآن الكريم فوق ذلك كله وأكبر من ذلك كله، إنها إحساس وشعور، وأمان

واطمئنان يعيشه الإنسان في صباحه ومساءه، يعيشه الإنسان في بيته وفي علاقاته الخاصة والعامة، إنه إحساس وشعور يعيشه المسلم في العلاقات المتبادلة بين الراعي والرعية - بين الرئيس والمرعوس، بين الغني والفقير، بين الكبير والصغير، فلا ييأس فقير من عدل الحاكم، ولا يطمع فيه غني ولا تضيع الحقوق بين الناس بسبب الوساطات والمحسوبيات التي جاء بها الإسلام، وأن تؤدي الأمانات ولا يتوقع المرء إلا كلمة حق عند سلطان جائر وشهادة عدل عند ذوي السلطان، و يقيني أن ضياع عقيدة التكريم من قاموس الأمة واختفائها من أوليات المجتمع قد أدى إلى اختفاء الإرادة الجماعية للنهوض، وأدى إلى انكفاء العلماء والمفكرين، كل على نفسه وفي داخل ذاته يجتر أحزانه ويلوك آلامه على ما حل بالأمة من التخلف في الوقت الذي تملك فيه الأمة كل عوامل النهوض.

إن هذه العقيدة ينبغي العمل على ترسيخها في نفوس الشباب كأمر إلهي ومطلب شرعي وعقيدة دينية، إن كرامة الإنسان مستمدة من إيمانه بتكريم خالقه ومعبوده، وعزته مستمدة من إيمانه بعزة خالقه وحرية وتكريمه يعتمدان على ولاءه وعبوديته الخالصة لعزیز لا يذل، وهو الله وقاهر لا يغلب وهو الله وفي إهانته

نيل من مقام عبوديته لربه واستهانة بمخلوقيته ومكانته التي خصها الله بالتكريم والتشريف في أصل الخلقة على سائر مخلوقاته، وأهله بما منحه من أدوات ليكون خليفة على كونه، ومهد له مفردات هذا العالم وجعلها ذلولاً لإرادة وخاضعة لمشيئته، ليعمر بها حياته ويتنعم بما فيها من متاع طيب، وسخر له كل ما في السموات والأرض تكريماً له وتلبية لحاجاته وقضاء لمصالحه وتحقيقاً لمنافعه ليتحقق فيه ويتحقق به معنى العبودية الخالصة لربه وخالقه في هذا العالم، ولقد احتفى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بمظاهر تكريم الإنسان باعتبار ذلك عقيدة وديناً يتمثله الإنسان في حياته ويعيشه في واقعه اليومي وفي علاقاته المتبادلة بين الناس جميعاً، الكل يعمل على تكريم الكل، فلا يعمل أحد على إهانة ما كرمه الله، ولا يسخر أحد مما أعزه الله فإذا أخطأ إنسان أو سقط في سلوكه فقد حدد له الشارع وسائل العقاب ومستوياته على درجات متفاوتة من التعازير والحدود، حسب حجم الجرم الذي ارتكبه أو الخطأ الذي وقع منه، حتى لا تترك الأمور في يد الحكام بلا ضوابط وبلا معايير، وحتى لا تترك مصائر الناس خاضعة لأهواء ذوي السلطان ونفوذهم.

إن تكريم الإنسان عقيدة ودين، ينبغي أن يحتل مكانته في أدبيات المجتمع وعلى ألسنة الدعاة وأفلام المفكرين حتى ينتبه ذو السلطان إلى بشاعة الجرم الذي يرتكبونه في حق دينهم وعقيدتهم وفي حق أمتهم أيضاً، حين يعمدون إلى إهانة الإنسان والنيل من إنسانيته التي كرمها الله ورفع مكانتها على سائر المخلوقات، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي خصه الخالق بأنه خلقه بيديه، قال تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ أُسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (١).

وهو الكائن الوحيد الذي خلقه الله على صورته، ولذلك جاء في الحديث، ومن قاتل فليتنجب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته (٢).

وهو الكائن الوحيد الذي اختصه الله بالخلافة على هذا العالم، وهو الكائن الوحيد الذي تحمل الأمانة التي أبت جميع المخلوقات وأعرضت عن حملها وحملها الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ

(١) سورة ص: آية [٧٥].

(٢) ورد الحديث البخاري كتاب الاستئذان، ورواه مسلم في كتاب البر وابن حنبل ٢/٢٤٤.

مَحْمَلَهَا وَأَشْفَقَنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ ﴿٧٢﴾^(١). وهو الكائن الوحيد الذي شرفه الله بخاصية العقل؛ ليسود به ويسوس به هذا العالم. فلماذا الإصرار على إهمال عقيدة تكريم الإنسان والإصرار على إهانته، إن هذه المعاني ينبغي أن تكون جزءاً أساسياً من المنهج التربوي الذي يلتفت حوله أبناءنا في مؤسساتهم التعليمية والتربوية، وينبغي أن نوضح لهم في ضوء هذه المعاني، كيف تقوم العلاقات بين الناس. كيف نرسم علاقات الرؤساء بالمرؤوسين والحكام بالمحكومين، إن تربية الأجيال على هذه المعاني النبيلة والعقائد السامية تخلق فيهم صفات العزة في غير غرور، وتجسد لهم معاني الشمم والإباء في غير كبرياء، يعرفون كيف ومتى يقولون للمخطئ قف أنت على خطأ، ويتصدون له أيا كانت منزلته ومكانته، وكيف ومتى يقولون للمحسن أحسنت ويشدون على يديه وينتصرون له ويؤازرونه، لا بد أن نعمل على شيوع عقيدة التكريم للإنسان في مناهجنا الدراسية، لأن ذلك يؤدي إلى خلق الثقة بالنفس والاطمئنان للمستقبل ويقضي على الظواهر السلبية التي تفشت في الأمة وعملت على هدم كيانها وزلزلت أركانها،

(١) سورة الأحزاب: آية [٧٢].

ومن هذه الظواهر السلبية ظاهرة عدم الانتماء للأمة والوطن، وعدم الاهتمام بالشئون العامة، والانكفاء على الذات والتفوق داخل النفس، مما قتل في الإنسان المعاصر كل معاني الهمة والإرادة الجماعية والإبداع إذ كيف يتأتى للعالم أن يفكر في التعمير أو التنمية والنهوض والارتقاء بالمجتمع وهو يعيش حياته متقلبا بين هلع في حاضره وخوف من مستقبله ؟

كيف له أن يبدع وهو مهان في مجتمعه، غريب في وطنه؟
كيف له أن يبني في الوقت الذي يجد كل شيء حوله يقف أمامه سدا منيعا يعوق حركته ويصد مسيرته ؟

إن عقيدة تكريم الإنسان هي نقطة البدء في خلق الإحساس بالثقة والشعور بالانتماء، ليجد فيها الإنسان نفسه ويحس بذاتيته، وينتشل نفسه من هذا الإحساس القاتل الذي يعيشه صباحا ومساءً ألا وهو الإحساس بالغرابة الذي يعوق كل تفكير في النهضة ويقضي على كل أمل في البناء

نحو قراءة جديدة لعلم الكلام



ارتبطت نشأة العلوم الإسلامية بظروفها التاريخية والاجتماعية التي يرجع بعضها إلى طبيعة الاحتكاك الثقافي بالحضارات المجاورة من فارسية وهندية أولاً، ثم بالحضارة اليونانية فيما بعد، لقد أدت الظروف التاريخية والاجتماعية التي عاشها المجتمع الإسلامي إلى نشأة مجموعة من العلوم التي قصد بها خدمة النص القرآن والسنة النبوية المطهرة بطريق مباشر أو غير مباشر، ويمكن أن نميز في هذه المرحلة المبكرة بين مجموعتين من العلوم قصد بهما تحقيق هذا الهدف النبيل هما :

أ- علوم القرآن.

ب- علوم السنة

وتشتمل المجموعة الأولى على علوم التفسير، وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وأحكام القرآن، والمحكم والمتشابه، وما يتصل بها من علم النحو واللغة والبيان... إلخ.



كما تشتمل المجموعة الثانية على علوم الحديث من الجرح والتعديل، ومصطلح الحديث، وعلم الرجال، ومن يستفسر في ظروف النشأة التاريخية لكل من هذه الفنون يجد لها ظرفاً تاريخياً ارتبطت به، وكان سبباً مباشراً للتفكير في هذا الفن أو ذاك، وقد يؤكد لنا ذلك أن نشأة كل من هذه الفنون قد ارتبطت باسم علم من أعلامه الكبار يمثل نقطة البدء في الاهتمام بالفن والاشتغال به، يأتي من بعده أعلام فيسيرون على منواله يطورون المسيرة، ويضعون لها القواعد والأسس النظرية التي تحولت فيما بعد إلى أصول وقواعد لتعلم هذا الفن وضبط مسأله، حدث ذلك في علم التفسير والحديث والنحو... وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

ويأتي علم الكلام في مقدمة هذه العلوم، وربما كان أسبق في تاريخ نشأته من كثير منها، فيرتبط في نشأته بموقف تاريخي معين وظروف تاريخية عاشتها الأمة في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وهذا الظرف يرتبط تاريخياً بقصة الخروج على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب من جانب، ونشأة الخوارج من جانب آخر، حيث تأسس مذهبهم على قاعدة أن مرتكب الكبيرة كافر تنتفي عنه صفة الإيمان، وأنه مخلد في النار، لا يدفن في مقابر المسلمين،

لا يصلى عليه، لا يتوارث، وجميع فروض علم الكلام يتفقون - فيما أعلم- على أن بحث هذه القضية في مجلس الحسن البصري (ت ١١٠هـ) كان سبباً في تجلية موقف الخوارج في هذه المشكلة، وإظهاره لعامة المسلمين، كما تأسس في هذا الموقف أنصار رأى المعتزلة، وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، واعتبروا أن مرتكب الكبيرة لا يصدق عليه اسم الكافر؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، كما لا يصدق عليه حكم المؤمن، لأنه ارتكب ما يوجب عليه خلوده في النار من وجهة نظرهم، وكان هذان الرأيان (رأى الخوارج والمعتزلة) في جانب، ورأى الحسن البصري ممثل أهل السنة والجماعة في جانب آخر، حيث اعتبر مرتكب الكبيرة مسلماً عاصياً، إن تاب قبل توبته وتسري عليه جميع أحكام المكلفين بالإسلام، هذه وقائع تاريخية ارتبط كل منها بموقف معين نتج عنه الاهتمام بهذا العلم وتأسيس قواعده - هذا أمر نحسبه على درجة كافية من الوضوح علم ذلك من علمه وجهل ذلك من جهله.

وإذا عدنا بذاكرتنا إلى تاريخ علم الكلام، سوف نجد أن مسأله وقضاياها لم تنشأ كلها مرة واحدة، ومن يتتبع تاريخ القضايا الكلامية التي شكلت المادة العلمية لهذا الفن يعلم تماماً أن كل مسألة

من مسأله بدأ الحديث عنها بسبب يختلف عن المسائل الأخرى، فمثلاً. إن الحديث عن مسألة القضاء والقدر تختلف عن بداية الحديث عن الجوهر والعرض والذات والصفات، وعلاقة الذات بالصفات... الخ، وهذا البعد التاريخي الذي ارتبطت به مسائل علم الكلام وقضاياها يفرض علينا العلم بتاريخية هذا الفن، وأنه خضع في نشأته وتاريخه لظروف الاحتكاك الثقافي بين المسلمين وأهل الأديان الأخرى والتفاعل الحضاري مع الأمم والشعوب التي وصل إليها الإسلام، فكلما نبئت مشكلة تتصل بالعقيدة أو بركن من أركان الإسلام قام من علماء الأمة من يتولى الدفاع عنها وتوضيح الرأي، بما أتيح له من دلائل العقول وما تيسر له من النصوص قرآناً وسنة.

وفي أواخر القرن الثاني وخلال القرنين الثالث والرابع، ونتيجة طبيعية لاحتكاك المسلمين بثقافة الفرس والهند واليونان، حدث نوع من التلقيح الثقافي بين هذه الحضارات الجديدة والحضارة الإسلامية الناهضة، وظهرت مصطلحات وآراء ومعتقدات لم يكن للمسلمين عهد بها من قبل، فأضاف ذلك عبئاً جديداً إلى مهمة علماء الكلام، والذي يتتبع مسائل هذا العلم ومفرداته ومصطلحاته يلحظ بوضوح البعد الزمني لظهور هذه المفردات وتلك المصطلحات، وعلى سبيل المثال، فإن مصطلح

العرض والجوهر لا نجده في القرن الأول، بينما نجده في أواخر القرن الثاني وفي الثالث بوضوح... وهكذا نجد أن قضايا علم الكلام لم تكن أواخر القرن الثاني وفي الثالث بوضوح... وهكذا نجد أن قضايا علم الكلام لم تكن واحدة في كل جيل، بل كانت تتنوع وتختلف حسب زمانها وملاساتها التاريخية والاجتماعية، وكان المفروض أن يتابع هذا العلم واقع المسلمين وقضاياهم، ثم وجدنا هذا الفن يتوقف تماما في القرن الخامس الهجري عند الاشتغال بقضايا بعينها أضفى عليها المتكلمون شكل المصطلحات الفنية (إلهيات - نبوات - سمعيات)، وأخذت بحوث المشتغلين بهذا الفن تدور حول هذه القضايا الثلاث في ضوء المذهب الذي ينتمي إليه فكريا ومنهجيا - فهذا معتزلي وذاك أشعري وثالث ماتريدي ورابع سلفي. فضلا عن المذهب السياسي كالتشيع أو الأخذ بمذهب الخوارج، وأخذ كل واحد من المنتمين لهذه المذاهب ينتصر لمذهبه بما شاء من أدلة وبراهين يدفع بها حجج خصمه أكثر مما يبين بها وجه الحق في مذهبه.

ولقد أشار الغزالي إلى ذلك في "المنقذ من الضلال" وانتهى إلى هذه الحقيقة: أن كل حزب بما لديهم فرحون"، وأخذت الأجيال التالية تتوارث هذا العلم جيلا بعد جيل (نفس القضايا-

نفس المفردات والمصطلحات - نفس المنهج) وهذا الموقف قد أضفى على علم الكلام وقضاياها لونا من القداسة التاريخية، بحيث إذا رمت إضافة جديدة أو التخلص من قديم بدا ذلك في نظر البعض خروجاً عن الاستقامة وابتداعاً في دين الله ما ليس فيه، ولو أنصفنا أنفسنا وأنصفنا مهمة علم الكلام لوجب علينا أن نفعل ما فعله المتكلمون الأوائل، الذين كانوا يتابعون أحداث عصرهم، وكلما جددت مشكلة تتصل بالعقيدة همضوا لمعالجتها بالمنهج القرآني الذي يجمع في براهينه بين نور العقل ونور الشرع، ولم يتوقفوا أبداً عند قضية بعينها ليجعلوا منها هم المسلمين الأول والوحيد كما هو شأن المشتغلين بعلم الكلام اليوم.

إن قراءة سريعة لما يدور في أروقة الدرس الأكاديمي لعلم الكلام اليوم تكشف عن هوة سحيقة بين واقع المسلمين اليوم، وما يعج به من مشكلات دينية وثقافية وما يلقي على طلبة العلم من دروس دينية تتصل بعلم الكلام، هذا العلم الذي كان يمثل خط الدفاع الأول والحصين ضد حملات التشكيك في الإسلام وعقائده، والذي أصبح الآن تراثاً ثقافياً يتعرف الطالب خلاله على آراء وأقوال وحجج الأقدمين التي واجهوا بها حملات التشكيك والتي اعترضت سبيل الدعوة في عصرهم، فيدرس الطالب أصول المعتزلة، من العدل

والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المترلّتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفريعات هذه المسائل وسلسلة الحوارات المتبادلة بين أوائل المعتزلة والمتأخرين منهم وبينهم جميعاً والأشاعرة ثم بين أتباع المدرسة الأشعرية ومن شايعهم في الرأي وأصبح مقياس المستوى العلمي للطالب مرتبطاً بمدى حفظه لآراء هذه المدرسة أو تلك وكيفية إبطال هذه الحجة أو الانتصار لها ونسج على نفس المنوال شيوخ المذاهب المعاصرين لنا الآن في قاعات الدرس العلمي، فلم يهتم المعلم بفتح أبواب التفكير أمام طلبة العلم ليكتشفوا حلولاً لمشكلات عصرنا الراهنة - وما أكثرها - وإنما عكفوا على التأليف والدرس والتمحيص لآراء القدماء، وأصبح ذلك هو مجال التنافس بين المشتغلين بعلم الكلام أساتذة وطلاباً على سواء.

والواقع الذي عليه عصرنا يختلف ضرورة عن الواقع الذي عاشه القدماء، والمشكلات التي نعيشها في واقعنا اليوم تختلف ضرورة عن المشكلات التي عاشها القدماء، والثقافات التي نتحاور معها الآن اختلفت كثيراً عن الثقافات التي حاورها القدماء بالأمس، وكل هذا يتطلب من علماء الكلام المعاصرين أن يقوموا بمراجعة شاملة لعلم الكلام الذي كانت - ولا زالت - مهمته الأساسية تتمثل في الدفاع عن الملة الإسلامية ضد خصومها والبرهنة على عقائدها بالأدلة البرهانية والنقلية على سواء.

إن قضايا علم الكلام ومفرداته ومسائله لم يتناولها القدماء إلا لأنها كانت تمثل مشكلات واقعية فرضت على المجتمع الإسلامي خلال احتكاكه بالحضارات المجاورة له. فهي ليست مشكلات عقلية مطلقة لا علاقة لها بالواقع - ولكنها كانت تمثل واقعا ثقافيا يعيش القدماء همومه في صباحهم ومساءلهم وفي مجالسهم العلمية، وعليك أن تراجع تاريخاً مشكلات علم الكلام وكيف ظهرت في البيئة الإسلامية، لتعرف أن علم الكلام كان مرتبطاً بالواقع ومشكلاته الدينية والثقافية ولم يكن ترفاً عقلياً، مشكلة القضاء والقدر، مشكلة الإمامة - مشكلة خلق القرآن - مشكلة الذات والصفات وما تفرع عن هذه المسائل الكبرى من جزئيات وتفرعات لم تكن منفصلة عن واقع المسلمين أبداً، ولم يكن القصد من بحثها في نشأتها الأولى إلا الكشف عن الحلول القرآنية لهذه المشكلات، ولكن طرأ على المسيرة التاريخية لهذا العلم، كما أشرنا سابقاً تغير في المنهج والهدف أدى إلى تحول الحوار من حوار مع الخارج المخالف لنا في الملة إلى حوار مع الداخل، تمثل في الحوار بين أصحاب المذهب ومخالفهم في المذهب وتطور هذا الحوار في لغته وفي مسائله، فبعد أن كان حواراً بين الداخل والخارج بين علماء الكلام المسلمين وخصومهم من أهل الملل الأخرى، أصبح حواراً بين الداخل والداخل، وبعد أن كان مصطلح

الخصوم يراد به أهل الملل الأخرى أصبح يطلق على المخالفين من الداخل أصحاب المذاهب الأخرى، وتطور الحوار شيئاً فشيئاً إلى ما يشبه الصراع الداخلي بين الفرق الكلامية، ولم يعد محاورة الخصوم في الخارج هدفاً ولا غاية بقدر ما أصبح الانتصار على الخصوم في الداخل هو المقصد الأسمى لكل فريق، ولم يعد تاريخ علم الكلام في هذه المسيرة التي انطلقت منذ نهاية القرن الثاني الهجري إلى الآن أن يستعين رجاله بالنفوذ السياسي، ليحققوا بذلك نصراً على مخالفهم من الداخل بدلاً من أن يستعينوا به على الأعداء في الخارج، وأصبح الانتصار للمذهب هو المجال الأرحب الذي يتبارى في ساحته المتنافسون من علماء الكلام معتزلة أو أشاعرة على سواء - وتولد عن ذلك لون من التعصب الممقوت لدى أتباع كل مدرسة، وانعكس ذلك كله على جغرافية العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه.

فتستطيع بسهولة ويسر أن تعرف أن هذا القطر أو ذاك يدين بالمذهب المعتزلي أو الأشعري أو الماتريدي أو السلفي، ولا تعدم أن تجد بين هؤلاء وأولئك من يجد نفسه وحظه ووضعهم الاجتماعي في الانتماء إلى مذهب معين وتأليب أصحاب الكلمة والنفوذ على مخالفه في الرأي والانتماء.

لعل مما يجب التنبيه عليه اليوم قبل غد خطورة الفرقة والتشتت الذي يعيشه العالم الإسلامي بسبب هذه العصبية المذهبية التي أورثها علم الكلام لأتباع المذاهب، وهذه الفرقة في صميمها تتناقض تماما مع أهداف علم الكلام ومقاصده العليا من توحيد الكلمة وتوحيد الصف أمام الأعداء. فهذا مطلب أساسي من مقاصد عقيدتنا "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا".

الاعتصام بحبل الله في مواجهة مشاكل عصرنا نحن، بفكرنا نحن وعقولنا نحن، وليس بفكر القدماء ولا بعقلية القدماء ولا بمناهج القدماء إن مسائل العقيدة الإسلامية تتمتع باليسر والسهولة والقرب من الفطرة، لا تحتاج في إثباتها إلى ما ورثناه في علم الكلام من التفرعات والتجزئات التي تنأى بقارئها عن منطق الفطرة وسهولة المأخذ بل قد تثير أحيانا من الشبهات والشكوك أكثر مما تدعو إلى اليقين والاعتقاد.

ومن هنا فإن علم الكلام الذي ندعو إليه الآن يضيف إلى هذه الأصول الإيمانية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر أمورا هي من لوازمها، فيتناول بالإضافة إليها الاهتمام بمقتضياتها ولوازمها من العمل والسلوك

الاجتماعي ونظام هذه المسائل الأصول تمثل قواعد الإسلام وأسس بنائه، ولم يعد هناك خلاف على أهمية هذه الأصول لدى المسلمين، لكن المشكلة التي تعيشها الأمة الإسلامية في عصرنا هذا تتمثل في تخلي الأمة وعدم اهتمامها بمقتضيات العقيدة الإيمانية من الالتزام بها والسلوك بمقتضاها والعمل على تحويلها إلى واقع، يعيش المسلم في ظله، ويحتمي بحماه، وينعم بالأمن والأمان في كنفه، نعم. المجتمع كله يؤمن بهذه الأصول ويؤدي - في معظم الأحوال - الأركان والشعائر. لكن ليس هذا فقط هو الإسلام، بل هذا يمثل الجانب الغيبي من الاعتقاد في الإسلام. لكن ما يخص الجانب السلوكي والاجتماعي من الإسلام قد تخلى عنه المجتمع، وأصبح في حاجة إلى من يربطه ويصله بعقيدة المسلم، لأن الجانب السلوكي العملي هو المظهر الوحيد للالتزام بالعقيدة وعنوان صلاحها ومظهر لصحة الإيمان وقد يكون عنوانا لتطرق الخلل، فليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

إن الاعتقاد النظري ما لم يتحول على يد أتباعه إلى سلوك وعمل فلا فائدة منه ولا فائدة له في المجتمع، ولذلك نجد أن القرآن الكريم لم يذكر الإيمان منفصلاً عن العمل الصالح أبداً، وكان في

كل موارد في القرآن الكريم يذكر العمل قرينا للإيمان؛ لأنه عنوانه ومظهره وآيته الدالة عليه. ومن يوم أن تخلى المسلمون عن العمل بمقتضى العقيدة الإسلامية، أو تحويلها إلى سلوك واقعي في حياتهم اليومية فقد تنازلوا عن أهم الخصوصيات التي تجعل منهم أمة وقوة تصنع التاريخ ولا تقبل أن تعيش على هامشه، وأن يعيشوا تبعاً بعد أن كانوا متبوعين.

إن الأمة الإسلامية في حاجة الآن إلى علم كلام جديد في أهدافه ومناهجه يخاطب الداخل أولاً، لكي يصل ما انقطع في مسيرته التاريخية، يخاطب الداخل، لكي يبين له أهمية العمل بمقتضى العقيدة؛ ليصح له اعتقاده في الله ورسوله، يخاطب الداخل بالحلل الإيمانية لمشكلات عصرنا التي نعانيها ونبحث لها عن حلول هنا وهناك دون أن نخرج على حلولها من قيمنا ومقتضى عقيدتنا.

نحن في حاجة إلى علم كلام نخاطب به الداخل لتبين أن الحرية في الإسلام فريضة تحتاج إلى من يدافع عنها ويرهن على أنها فريضة دينية وأن العبودية لله لا تتحقق إلا إذا تحرر العبد من عبودية العباد.

نحن في حاجة إلى علم كلام يبين للداخل أن العدل أساس الحكم، وأن الخلل في انهيار الحضارة الإسلامية يرجع إلى الخلل الذي أصاب مبدأ العدل في نظام الحكم.

نحن في حاجة إلى علم كلام جديد يخاطب الداخل بمبدأ المساواة وأنه فريضة دينية كالعدل والحرية وبالثلاثة تستقيم أمور الممالك، وتنظم الحكومات.

نحن في حاجة إلى علم كلام يخاطب الداخل أولاً بأن مبادئ الاجتماع البشري المسلم ينبغي أن تؤسس على قيم الإسلام ومبادئه من الصدق والعفة والأمانة والوفاء، وأن هذه الأسس الأربعة ينبغي أن تكون أصولاً اجتماعية للكيان البشري، الذي يقوم على المحبة والمودة والإخلاص والتسامح، وأن هذه الأسس الأربعة ترتبط بصحة الاعتقاد؛ لأنها علامة امتلاء القلب بصحيح الإيمان وآيته عليه ناهيك عن شعب الإيمان الأخرى التي تحدث عنها الرسول ﷺ في قوله : **[الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق]** وأن شعب الإيمان كلها هي المظهر الخارجي لسلامة الاعتقاد، وصحيح الإيمان، فإذا ما صح لنا الحوار مع الداخل يكون الحوار مع الخارج أيسر وأسهل، لأن أصول العقيدة الإسلامية في بساطتها لا تحتاج إلى تكلف في الدفاع عنها وكفي، للإقناع بها تجليتها للآخر بمنهج سليم يمثل أحد جناحيه العلم الصحيح، ويمثل الجناح الآخر النقل الصحيح ويكون التطبيق العملي للسلوكيات الإسلامية مظهراً للاقتناع بما يعتقد وقدوة للآخر بالتزام المجتمع بما تمليه عليه عقيدته.

إن الذي نلفت النظر إليه هنا جزء لا يتجزأ من صحيح العقيدة ومقتضياتها؛ فإن الإيمان لم يذكر منفرداً عن العمل مطلقاً في القرآن بل اقترن به العمل في كل مواعده وآياته.

وسواء كان ارتباط العمل بالإيمان شرط كمال أم شرط صحة فإن هذا الخلاف لا يقلل من أهمية الالتزام بالتطبيق لمقتضيات العقيدة واعتبارها جزءاً مكماً لدرس العقيدة في قاعات المحاضرة، والكتاب المدرسي، ونحن لا نريد أن نعرض هنا لمشكلة تأخير العمل عن الإيمان وعلاقة ذلك بالقول بالإرجاء أو عدم القول به، لكننا على يقين أن إهمال هذا الجانب في دروس العقيدة قد أدى إلى نوع من الانفصام في الذهنية الإسلامية على امتداد تاريخها الطويل، انفصام بين الإيمان والعمل، انفصام بين الاعتقاد والتطبيق ومع طول العهد بذلك الانفصام نشأ في المجتمعات الإنسانية نوع من الاكتفاء بالاعتقاد النظري، الذي يكتفي فيه المجتمع باعتقاد القلب ونطق اللسان، وإن أراد طلباً لكمال إيمانه فلا بأس من مباشرة الطقوس والشعائر الدينية التي هي أركان الإسلام من الصلاة والصيام والزكاة والحج، ووفر في ذهنية المجتمعات الإسلامية أن ذلك هو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده دينا يجمع بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، دينا يجمع بين عمارة

الأرض بمنهج الله ونشدان الآخرة بعبادة الله، دينا يجعل من عمل الفلاح في حقله والعامل في مصنعه والعامل في محراب علمه والطالب في درسه يجعل ذلك كله عبادة لله وتعبدًا له.

لقد غاب عن ذهنية المجتمعات الإسلامية أن الإسلام يجعل الدنيا مزرعة الآخرة، وأن صلاح دنياهم باب ومدخل لصلاح آخرهم، وما لم تصح لهم دنياهم فقد خسروا الدنيا والآخرة معاً.

لقد نزلت أول آية في الذكر الحكيم لتأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وتأمر الأمة من بعد بقراءة الكون وتصفح آياته المبتوثة في مفردات عالم الطبيعة من الإنسان والحيوان والنبات، ليجعل منها المفكر والعالم، زاده العقلي في مواجهة أي انحراف عقائدي يعتمد على شبهات العقل أو شكوكه. جعل تصفح أفراد الموجودات واستجلاء ما فيها من عناصر الغائية والسببية والحكمة مدخل عقلية للوصول إلى إثبات الحقائق الدينية التي خاطبنا بها القرآن الكريم في شكل قضايا مطلقة وحقائق كلية لا تخضع للمشاهد الحسية، ولكنها ثابتة بمنطق العقل واستقراء التجربة، وعليك أن تقرأ الآية الكريمة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١). مرات ومرات

(١) سورة العلق آية [١].

وتسأل نفسك أين مفعول الفعل "اقرأ"، لتعرف أن المقروء هنا هو "الذي خلق" هو الكون بما فيه من آيات أفاقية وآيات نفسية وإذا رجعت ببصرك وبصيرتك إلى الذكر الحكيم كله لتجمع مفردات هذه الآية "الذي خلق" سوف تعلم أن هذه المفردات قد طواها القرآن الكريم محملة أحياناً ومفصلة أحياناً أخرى في آياته المكية، ليجعل منها الزاد والدليل على إثبات مقاصد القرآن وتحقيق أهدافه الكبرى من إثبات الحقائق الغيبية التي ربما ضل عنها العقل في متاهات المصطلحات الفنية التي ازدحمت بها مصنفات علم الكلام، وقد تجد في كثير من الأحيان أن مقاصد المتكلمين ونتائجهم قد عارضت مقاصد القرآن وأهدافه بسبب اهتمام المتأخرين بتحرير عبارات المتكلمين أكثر من اهتمامهم بتحرير مقاصد القرآن واستجلاء أهدافه.

إن منهج القرآن في الاستدلال على الحقائق الدينية يبدأ من عالم الشهادة من استقراء الآيات الكونية، يبدأ من الواقع الذي يحيط بالإنسان، بل من الإنسان نفسه وليس من الفروض العقلية المجردة التي فرضتها العقلية اليونانية بمصطلحاتها ومفرداتها على تراث المتكلمين.

نعم قد يكون العذر واضحاً في اهتمام المتكلمين بهذه

المصطلحات الفنية واستعمالهم لهذه المفردات، فقد يتحاورون مع نمط من العقلية المشبعة بهذه الثقافة المستوردة وكان مطلوباً منهم أن يظهروا للخصم أنهم على مستوى التحدي فكرياً وثقافة، ولكن السؤال ما هو عذر الأجيال التالية في إصرارهم على التمسك بنفس المصطلحات ونفس المفردات، وقد تغير الزمن واختلقت وتغيرت المشكلات، فالقضايا ليست هي هي. وليس المخاطب هو هو، فلماذا لا نخاطب المحاور المعاصر بمفرداته ومصطلحاته. كما نخاطب الأقدمون محاورهم بمصطلحاته ومفرداته.

إن المحاور المعاصر يتسلح بالعلم الحديث ومنهجه التجريبي، ولا شك أن العطاء العلمي لعصرنا قد كشف لنا عن أسرار من الكون كان يجهلها الأقدمون، وهذا يفرض على عالم الكلام الجديد أن يتسلح بلغة هذا العلم الحديث ويتدرب على منهجه ويحسن توظيف أدواته في الإقناع والبرهنة بادئاً بما بدأ به القرآن، وهو النظر في عالم الشهادة.

يحسن التعلم منه ويتقن العلم به وهذا يتطلب منه النظر في علوم العصر والإفادة منها - الفيزياء وقوانينها - الكيمياء الفلك والجيولوجيا، التشريح - علوم النفس - لأن هذه العلوم في مجموعها

قد كشفت عن أسرار ودقائق تحدث عنها القرآن كثيرا، ولم يكن لنا العلم بما لولا الاكتشافات العلمية - وهذا باب واسع يجب الإفادة منه وتوظيفه في مجال الدراسات الكلامية، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن مؤلفات أمثال زغلول النجار ومن على شاكلته يجب أن تحتل مكانتها في الدراسات الكلامية؛ لأنها تخاطب الإنسان المعاصر بلغته التي يفهمها، ومن هنا فأنا ألفت النظر إلى ضرورة الإفادة من فكر هذا العالم وأمثاله في الدرس الأكاديمي لعلم الكلام في الأزهر ودار العلوم، وهذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التفصيلات و البسط في القول، حتى تتضح الفكرة للقارئ قبل أن يبادر بالرفض والاعتراض كما هو شأننا في عدم تقبل كل جديد.

ومن الأمور التي يجب الاهتمام بها في الدرس الكلامي ما أشار إليه القرآن من الاعتبار بقوانين السببية على مستويين رئيسين:

المستوى الأول: السببية الطبيعية التي تحولت في كتابات الماديين إلى ما أسموه بالاحتمية الطبيعية والاحتمية التاريخية، إعلاننا منهم برفض الإيمان بالمسبب الأول، وإيماننا منهم بفاعلية الأسباب ذاتها، إن هذه القضية على جانب كبير من الأهمية حيث تحتاج من المتخصصين في هذا الفن الى تحليلتها وتوضيح الفروق بين الإيمان

بها من منطلق القرآن والوحي، وأن ذلك قانون الله في كونه وأنه لا يتخلف أبداً إلا لتقع المعجزة على يد النبي، ومنطلقات رفض الماديين للإيمان بالمسبب الأول، وبالتالي رفضهم للإيمان بالغيب.

أما القضية الثانية فهي علم السنن الإلهية وهذا يتطلب الوقوف على فاعلية السنن للإلهية في المجتمعات الإنسانية وانتظام أحوالها، وأن هذه السنن قائمة مقام قانون السببية في عالم الطبيعة، ومتى توفرت لها أسباب وقوعها، فإنها لا تتخلف أبداً وتلك سنة الله المطردة ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

لقد غاب عن المسلمين أثر هذين القانونين في مسيرة الأمة، بسبب غياب الاهتمام بهما في قاعات الدرس الأكاديمي في حين قد اهتم بهما الغرب ودرسوهما تحت ما يسمى بالتحتمية التاريخية والاحتمية الطبيعية، فأفادوا من هذين القانونين وأعرض عنهما المسلمون فلم يفسحوا لهما مكاناً لا في الدرس الأكاديمي، ولا في البحث الديني مع أنهما (علم السنن - قانون السببية) عماد نهضة الأمة - أي أمة.

إن هذين القانونين (الغائية - والسببية) ينبغي أن لا يفصل بينهما وبين الدرس العقائدي بسبب من الأسباب، لأن الإيمان بهما مظهر من مظاهر الاعتقاد بحكمة الخالق في خلقه وعنايته به. كما أن الإيمان بقانون

السببية على مستوياتها الاجتماعية والكونية يثير ويوضح للعقل البشري قانون الله في كونه وسنته الماضية في تاريخ الوجود البشري، وكم قص القرآن علينا قصص السابقين؛ لنعلم هذه السنن ونفيد منها في نهضتنا وانتظام حياتنا، ومن المهم هنا أن نطرح بعض التصورات المنهجية لتناول علم الكلام بمنهج جديد وقضايا جديدة.

وهذا لا يعني التقليل أو النيل من علم الكلام وتاريخه، وإنما هي محاولة أن نقتفي أثر السابقين من علمائنا، وأن نفتدي بهم فنعيش مشكلات عصرنا كما عاشوا مشكلات عصرهم، ونتناول المشكلات والشبهات المعاصرة لنا التي تتعرض للإسلام وقداصة القرآن الكريم والسنة النبوية كما تعرضوا لها، وأن نفيد من معطيات العلم في عصرنا، كما أفادوا من معطيات عصرهم، وألا نكتفي بترديد أقوالهم وقضاياهم التي عاشوها هم في عصرهم هم، ولم يعد لها وجود في عصرنا، فليس ذلك يمثل وفاء لهم بقدر ما يمثل جموداً وتحجراً في مسيرة الأمة التي حذرنا منها ونهونا إلى خطورتها.

ويتضمن هذا التصور أن نتناول دراسته العقيدة على مستويات متعددة ومتدرجة من الإجمال إلى التفصيل:

– المستوى الأول: في مراحل التعليم الابتدائي:

ويمكن أن نطرح في هذه المرحلة قضية الإيمان بالله ورسوله

وكتبه والملائكة واليوم الآخر، وأنه سبحانه خالق الكون والإنسان وأمره بالعمل الصالح؛ ليكون وسيلة لدخول الجنة بأسلوب بسيط مدعوم بالآيات والأحاديث التي يحفظها الطفل في هذا السن.

– وفي المرحلة الإعدادية: يتناول بعض قضايا الألوهية

دلائل وجود الله من القرآن الكريم – التوحيد ودلائله من القرآن الكريم. وكذلك تتناول بعض الصفات الإلهية كالعلم والقدرة والإرادة والحكمة.

– في الثانوي: قضية النبوة:

الأنبياء – صفاتهم – كتبهم ووحدة الدين الإسلامي – الوحي – المعجزة – صفة الحكمة – مظاهرها – الغائية – القضاء والقدر – قانون السببية وعلاقته بالسنن الإلهية في الكون الطبيعي، وفي انتظام أحوال المجتمع ولا بأس أن تدرس في هذه المرحلة علاقة العلوم الطبيعية (الفيزياء – الكيمياء – الفلك – الجيولوجيا – الطب) بقانون السببية من جانب، وأنها وسيلتنا لإعمار الأرض تنفيذاً للأمر الإلهي من جانب آخر ، وأن في ذلك جزء من عقيدتنا. مع بيان أن الأسباب ليست فاعلة بذاتها، وإنما هي خاضعة لمسبب الأسباب لتربط بين النظام الكوني العام وخالق هذا الكون وأن

مظاهر الطبيعة وظواهرها هي في صميمها تجليات لصفات الخالق وآيات دالة عليها.

وفي الجامعة نتناول المشكلات المعاصرة التي تتصل بعقيدة المسلم ومقتضيات هذه العقيدة، من:

- أ- مسئولية الإنسان عن إعمار الكون ومسئوليته عن حريته.
ب- ودور الراعي في إصلاح الرعية. نظام الحكم والسياسة الإسلامية.

ج - الرد على الشبهات المثارة ضد الإسلام من أعدائه في الداخل والخارج، ومن المفيد أن نستلهم عطاء العلم الحديث في تناولنا لكل هذه القضايا، حتى يشعر الدارس أنه ليس منفصلاً عن الواقع الذي يعيشه وأنه يهتم بما يملك من أدوات ووسائل متاحة في بناء المجتمع من خلال درسه العقيدة التي تتمثل في شعب الإيمان الكثيرة التي حدثنا عنها الرسول ﷺ في قوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان، إن هذا الربط بين العقيدة ومقتضياتها تخلق لدى المسلم إحساساً قوياً وشعوراً متدفقاً أن كل عمل يقوم به في حياته اليومية هو عبادة لله،

وهو من صميم الإيمان ليستقر في ذهنية المجتمع كله أن الإسلام دين ودنيا، وليس عقيدة نظرية قاصرة على الاعتقاد والقلب دون سند لها من العمل والسلوك كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١).

فجمعت الآية بين الإيمان والعمل واليوم الآخر لينتظم في ذهن المسلمين أن الإيمان بمستوياته الثلاثة (الاعتقاد القلبي والعمل السلوكي واليوم الآخر) لا ينفصل واحد منها عن الآخر، وهذا ما نود أن نغرسه في قلوب الناشئة منذ الصغر والله من وراء القصد وهو حسبي.

علاقة العقل بعالم الغيب



يجب أن تعلم أن تصور الإسلام لعلاقة العقل بعالم الشهادة مؤسسة على إدراك كامل بطاقة العقل وإمكاناته والعلم بوظيفته، أن الإنسان لو فقد حاسة من حواسه الخمس فاته العلم بالعالم الحسي المقابل لها، ولو تخيلنا إنسانا خلق بدون هذه الحواس فإنه لا يعلم شيئاً عن هذا العالم على سبيل اليقين.

واليقين هنا مطلب أساسي لهذا اللون من المعرفة بعالم الغيب، لأن العقل قد يتخيل أموراً وعوالم كثيرة لا نصيب لها من الواقع والخيال العلمي له دوره المعرفي في عالم الشهادة، ولا سبيل إلى إنكاره، لكن ينبغي أن نعرف هنا أنه لما غابت الحواس عن العقل تخلف عنه العلم اليقيني بعالم المحسوسات، لأن روافد المعرفة الحسية أصبحت مفقودة بالنسبة له فانتقل المستوى

المعرفي للشخص من اليقين إلى التخيل، هذا في عالم الشهادة. أما في عالم الغيب فإن الأمر يختلف تماما عن ذلك، لأن الحواس لا تناله أصلا ولا سبيل لها إليه، وبالتالي فإن روافد العقل التي تزوده بالمعرفة بعالم الغيب مفقودة، والتخيل العقلي هنا ليس مطلوبا، لأن مطلوب المعرفة هنا هو اليقين الجازم الذي لا مجال فيه للتخيل وينبغي أن نفرق هنا بين مستويين لمعنى الغيب.

مستويات الغيب :

أ- غيب نسبي :

هناك ما يسمى بالغيب النسبي وهو ما غاب عن الحواس في عالم الشهادة ويدخل في ذلك الماضي والمستقبل فكلاهما غيب بالنسبة للحواس وكذلك الأمر بالنسبة للحاضر، فهو غيب بالنسبة لمن لم يشاهده، لكنه ليس غيبا لمن عاصره وعاشه، فهناك أمور معاصرة للشخص المعين لكنه لم يشاهدها لغيابه عنها فتكون غيبا بالنسبة له وليست غيبا لمن شاهدها، والشخص الواحد قد يكون الأمر المعين غيبا بالنسبة له في وقت دون آخر، وهكذا شأن الإنسان في عالم الشهادة، فالغيب بالنسبة له أمر نسبي إضافي، قد يكون الأمر غيبا بالنسبة لشخص دون شخص، وقد يكون

الأمر غيباً للشخص الواحد في وقت دون وقت، وعلاقة العقل بهذا النوع من الغيب النسبي متفرعة عن علاقته بعالم الشهادة، فما غاب عنا وجربه غيرنا لزمنا العمل بمقتضاه عند العلم به.

وما تواتر العلم به عن الأمم الماضية من أخبار الأنبياء عنهم هو مما يلزم العلم به، وما يتنبأ به العلماء بناء على المشاهدات العلمية المتكررة هو من هذا القبيل بناء على إطراد السنن الإلهية في الكون سواء تعلقت هذه السنن بالظواهر الطبيعية أو بالمجتمعات البشرية، لأن سنة الله في كونه لا تتخلف إذا وجد المقتضى وارتفع المانع، وهذا هو محل اعتبار الإنسان الذي ندبه القرآن إليه في نهاية كل قصة يقصها عن الأمم الماضية حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(١). ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾^(٢). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾. تكررت كثيراً في سورة الشعراء هذه التعقيبات القرآنية على قصص الأمم الماضية، وهي تلفت نظرنا إلى الغرض من سوق هذه القصة أو تلك، ليقوم العقل بوظيفته فيها فكراً وتأملاً واعتباراً، وذلك ما ندبه الشرع له وحثه عليه.

(١) سورة الحشر: آية [٢].

(٢) سورة يوسف: آية [١١١].

ب - الغيب المطلق :

وهو ما لا سبيل للعقل إلى العلم به عن طريق الحواس بحال ما،
أو هو ما استأثر الله بعلمه وحجبه عن جميع خلقه، قال الله تعالى:
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(١). ﴿قُلْ لَا
يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢).

أ- والغيب قد يطلق في القرآن الكريم ويراد به مكنون العلم الإلهي
الذي استأثر الله به عن سائر خلقه. يستوي في ذلك الرسول
والنبي والولي. إلا من شاء ربك منهم فيعلمه الله ما شاء من
علمه كيف شاء. كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ
عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(٣). ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾^(٤).
فهذا العلم الإلهي غيب عن الإنسان لا ينال بحس
ولا عقل، ولا سبيل إليه إلا بالتعليم الإلهي لمن شاء من عباده
عن طريق الوحي أو الرؤيا أو الإلهام، فهو ليس اكتساباً، ولكنه

(١) سورة الأنعام: آية [٥٩].

(٢) سورة النمل: آية [٦٥].

(٣) سورة البقرة: آية [٢٥٥].

(٤) سورة النساء: آية [١١٣].

وهب وعطاء، لا مدخل لروافد العقل المعرفية إليه، ولكن هناك أبواب أخرى لتحصيل هذه المعرفة يدخل منها أهلها ويسعى إليها عشاقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(١). ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٢). فهذا العلم لا ينال بكسب عقلي ولا يتخيله عقل ولا يناله وهم، وإنما يتعلم من الله بطريقه المعروف ووسائله المشروعة.

ب - وقد يطلق الغيب في القرآن الكريم ويراد به الذات الإلهية وصفاتها وعلى ذلك كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٤﴾، فقالوا: إن الغيب هنا هو الله، نقل ذلك ابن تيمية عن جماعة من الحنابلة منهم القاضي أبو يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني^(٤). وخالفهم في ذلك جماعة آخرون رفضوا إطلاق لفظ الغيب على الله.

(١) سورة البقرة: آية [٢٨٢].

(٢) سورة البقرة: آية [١٥١].

(٣) سورة البقرة الآيتان [٢، ٣].

(٤) راجع دقائق التفسير ١/ ٢٠٢، منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص ٤١.

ويبدو أن الخلاف في هذه المسألة خلاف لفظي. ذلك أن الذين أجازوا إطلاق لفظ الغيب على الله رأوا أن الخلق يغيبون عن الله في معظم أحوالهم، فلم يذكروه ولم يعبدوه ولم يشهدوه في أفعالهم، فهو سبحانه ليس بنفسه غائبا عنهم حفظا ورزقا ولطفًا وعونا، وإن كانوا هم غائبين عنه إنابة وتوكلا، وذكرًا وعبادة.

فالمعنى المقصود في استعمال لفظ الغيب وإطلاقه على الله، هو انتفاء شهود الخلق له في معظم الأحوال، وهذا صحيح وواقع.

أما الذين رفضوا إطلاق لفظ الغيب على الله فكان قصدهم أنه حاضر مع كل كائن في كونه ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾^(١). فهو سبحانه مع خلقه علما ورزقا ولطفًا وإحياء وإماتة، وهو سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. فهو سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم، ومع كل كائن في كونه

(١) سورة المجادلة: آية [٧].

بهذا المعنى، فهم الغائبون عنه، وليس هو الغائب عنهم، ولذلك لا يجوز إطلاق لفظ الغيب على الله، وهذا المعنى صحيح أيضا.

وعند التحقيق لا نجد خلافا بين أصحاب الرأيين فأصحاب الرأي الأول يميزون استعمال لفظ الغيب على الله لغيب الخلق عنه، وأصحاب الرأي الثاني يرفضون ذلك؛ لأنه سبحانه ليس غائبا عن الخلق، وإن كان الخلق غائبين عنه، وكلا الرأيين صحيح على هذا التفسير، فصارت المسألة خلافا لفظيا فقط.

معرفة الغيب بين منهجين:

والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه الآن، ما موقف العقل من التعرف على عالم الغيبات وقضاياه؟ إن العقل مطالب هنا بالإيمان بالغيب، سواء استعملنا لفظ الغيب مرادا به معلومات الله التي لا تتناهى والتي حمل إلينا منها أنبياء الله ورسله أو أردنا به الذات لإلهية وصفاتها، واليوم الآخر والبعث وقضايا السمعيات عموماً؟

لقد سبق القول بأن الذي فقد حواسه يستطيع أن يتخيل في عالم الشهادة ما يشاء لأن عالم الشهادة محسوس، والعالم الذي يريد التعرف عليه هو أيضا محسوس، فالتخيل بالنسبة له ممكن،

ولكن تظل معرفته بهذا العالم معرفة تخيلية لا ترقى إلى اليقين، ولا ضير أن يحدث ذلك في عالم الشهادة، بل قد يكون ذلك مطلوباً في بعض الأحيان أن يتخيل الإنسان مستقبله على نحو ما، ولكن الإيمان بالغيب لا يكفي فيه التخيل ولا الظن، بل لابد فيه من اليقين الجازم الذي لا يخالطه شك، ولا يرقى إليه ريب؟

والإجابة على السؤال السابق تحمل معالم المنهج المطلوب في علاقة العقل بعالم الغيب، وفي نفس الوقت تضع أمامنا حقيقة الخلاف بيننا وبين منهج المخالفين في الإيمان بقضايا الغيب فلاسفة كانوا أو متكلمين قدامى كانوا أو معاصرين، وهذا يفسر لنا بالتالي سبب الحملة التي شنع بها المخالفون على منهج السلف واتهموهم خلالها برفض العقل وأحكامه.

إن قضية الإيمان بالغيب هي محك الخلاف بين المنهجين: منهج عرف أصحابه للعقل إمكاناته وطاقاته من جانب، وعرفوا أيضاً مطلب الشرع والوحي من العقل والوظيفة التي ناطه بها من جانب آخر.

أما المنهج الثاني فأطلق أصحابه العنان لعقولهم. فلم يعترفوا بإمكاناته، ولا طاقاته بل قالوا: إن العقل قادر على أن يخضع كل شيء لسلطانه ما غاب عنه وما حضر، ما أدركته الحواس وما

غاب عنها، حتى ما أخبرت به الأنبياء عن عالم الغيب وقضاياه
يجب أن يخضع العلم به وبكيفيته لسلطان العقل.

ولا مانع عندهم أن يتخيل العقل ويخلق لنفسه عالمه
الغيبي الخاص به.

ولا مانع أيضا عندهم من رفض هذا العالم الغيبي
وإنكاره، ولم يفرقوا في ذلك بين مطلب الشرع من العقل في عالم
الشهادة ومطلبه من العقل في عالم الغيب، والخلاف بين الموقفين
يكمن في المنهج أولا.

إن أصحاب المنهج الأول وظفوا العقل فيما خلق له في
التعرف على عالم الشهادة، وعرفوا له قدره وحدوده في مجال
التعرف على عالم الغيب، عرفوا أن العقل في عالم الشهادة مسلط
لاكتشاف الكون وقوانينه، وهو في عالم الغيب متعلم يأخذ العلم من
مصادره التي غاب عنها أو غابت عنه والتي جاء الخبر عنها، معصوما
عن معصوم عن الله سبحانه، عرفوا أن العقل يملك البحث والتعرف
على عالم الشهادة، لكنه يفقد جميع الأدوات التي يتعرف بها عالم على
الغيب إلا مصدرا واحدا هو الوحي الذي هو إخبار الله عن ذاته بذاته
على لسان رسوله، هذا إذا كان للعقل أن يدعي الإيمان بما جاء به

الرسول، أما إذا كان العقل رافضا الأخذ عن الرسول ابتداء فهذا له شأن آخر، وليس لنا معه هنا من حديث.

أما أصحاب المنهج الثاني فلم يفرقوا في ذلك بين عالم الشهادة وعالم الغيب في علاقة العقل بكل منهما، ونسوا في ذلك أن روافد المعرفة العقلية إلى عالم الشهادة يمتلك العقل أدواتها وهي الحواس الخمس. أما بالنسبة لعالم الغيب فلا يملك من أدوات التعرف عليه إلا الجهل المطبق، أو التخيل، أو التوهم، أو الظن وكل هذه المستويات المعرفية لا تغني في مجال الإيمان شيئا.

والسؤال الآن: أي المنهجين أكثر احتراما للعقل... وأيهما أكثر عقلانية، أن نأخذ الحديث عن الغيب وعن الله مأخذ التصديق به كما جاء به الوحي، أم نتخيل له كيفيات عقلية لسنا مطالبين بها أولا، ولا سبيل لنا إلى العلم بها بالحواس ثانيا ؟

إن القضية هنا تتعلق بتصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به عن عالم الغيب أو عدم تصديقه.

فإذا كان المخاطب بذلك مؤمنا بمحمد ﷺ وبرسالته وأنه صادق في الحديث عن الله وبما أنزل الله، فلا شك أن كل ما أخبر

به الرسول ﷺ عن قضايا الغيب يكون عنده حق لا مزية فيه، ولا يجوز للعقل أن يتدخل في ذلك بالتخيل أو التوهم لكي يتأول النص الإلهي على ما تخيله بعقله أو توهمه بظنه.

أما إذا لم يكن له من الإيمان بنبوة الرسول ﷺ نصيب، فيكون الحديث معه أولاً في تثبيت النبوة وعن دلائل صدق النبي ﷺ فيما أخبر به عن الله. فإذا ما ثبت عنده صدق النبي في كل ما أخبر به، يكون ذلك وحده مدخلاً صحيحاً لتسليم العقل بما أخبر به الرسول ﷺ عن الغيبات، خاصة إذا عرفنا أن قضايا الغيب لم يطلب الشرع منا أن نبحث فيها لا كما ولا كيفاً، ولكن طلب منا الإيمان بما على ما أخبر به الرسول ﷺ فقط، ولذلك فإن السلف قد دونوا معالم المنهج وأصوله - خاصة فيما يتصل بالغيبات - وكانوا لا ينقلون من الأحاديث إلا ما صح عندهم عن الرسول ﷺ أو إلى أحد صحابته - رضوان الله عليهم - وإذا أرادوا شرح آية أو بياناً لحديث يتعلق بالغيبات شرحوا ذلك بالآثار المروية عن الرسول ﷺ وليس بما يمكن أن يفهمه العقل منها.

يقول الإمام أحمد: نؤمن بما ونصدق بما ولا نرد منها شيئاً إذا كانت بأسانيد صحاح^(١).

(١) شرح أصول أهل السنة، اللالكائي: ١ / ٥٤.

وقال في موضع آخر: أحاديث صحاح تؤمن بها ونقر، وكل ما روي عن النبي ﷺ بأسانيد جيدة تؤمن بها ونقرها ^(١).

وقال ابن عينة: هي حق نرويهما على ما سمعناها ممن نثق به ونرضى به، وقال أبو عبيد: إن هذه الأحاديث يرويها الثقات بعضهم عن بعض ^(٢). وحين يروي السلف هذه الآثار النبوية ليؤكدوا بها قضية من القضايا الإيمانية لم يغلقوا الباب أمام العقل أن يعمل وينظر ويتدبر الأثر النبوي أو الآية القرآنية، لكن بشرط ألا يقدم نظره على الآية أو الحديث ويجعل ذلك أصلاً له يتأول عليه الآية القرآنية لتوافق أصوله من المعقولات، لأن في ذلك أماناً من الزلل والضلال، خاصة أننا لم نكلف من الشرع في قضايا الغيب سوى الإيمان بما ورد عنه فقط.

يقول اللالكائي: "فمن أخذ في هذه المحجة وداوم بهذه الحجج على مناهج الشريعة آمن في دينه التبعة في العاجلة والمسائلة في الآجلة... ومن ابتغى في غيرها مما يهواه أو يروم سواها مما تعداها أخطأ في اختيار بغيته وأغواه، وسلكه سبل الضلالة وأرداه،

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

فيما يعترض على كتاب الله وسنة رسول الله بضرب الأمثال ودفعهما بأنواع المحال، والحيدة عنهما بالقليل والقال... مما لم يعرفه أهل التأويل واللسان ولا خطر على قلب عاقل بما يقتضيه من برهان ولا انشرح له صدره موحد عن فكر أو عيان"^(١).

إن الاعتصام بالنص الصحيح في قضايا الغيب كان منهجا أقوم في منطق العقل نفسه. ذلك أن العقل مطالب بالإيمان به وفي نفس الوقت ليس مؤهلا للبحث فيه كما هو شأنه في عالم الشهادة. ولم يطلب منه الشرع البحث فيه، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ولا يكلفها إلا ما آتاها، وسبيله الوحيد إلى التعرف على الغيب هو خبر المعصوم عن الله، الذي قال لصحابته: «تركتم على الخجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٢).. وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾^(٣)، وعن ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا.

(١) السنة ص: ١.

(٢) حديث العرياض بن سارية مشهور رواه ابن ماجه في المقدمة ص ٤٣ ، ورواه أحمد ٤ / ١٢٦ : والحاكم وابن أبي عاصم في السنة ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة الحشر: آية [٧].

وكان أهل الحديث هم أحرص الناس على ذلك لاختصاصهم برسول الله ﷺ وطول ملازمتهم له، وحفظهم العلم النبوي عنه، وشدة تمسكهم بما سمعوه ونقلوه عنه إلى الناس من بعدهم، وذلك بدون واسطة بينهم وبينه، فحفظوا عنه ووعوا واعتقدوا جميع ما سمعوا.

يقول الإمام الالكايني في كتابه السنة عن هذا المنهج: فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله ﷺ مشافهة لم يشبه لسان ولا شبهه، ثم نقله العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة والصافة عن الصافة والجماعة عن الجماعة، أخذ كف بكف، وتمسك خلف بسلف، الحروف يتلو بعضها بعضا، ويتسق آخرها على أولها وصفا ونظما، فهؤلاء الذين تمهدت بنقلهم الشريعة، وحفظت بهم أصول السنة، فوجبت لهم بذلك المنة على جميع الأمة، فهم حملة علمه، ونقله دينه، وسفرته بينه وبين أمته، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه^(١).

ومن أهم ما عني به أصحاب هذا المنهج حرصهم على صفائه ونقاؤه، فلم يتأثروا فيه بمسلك الخصوم معهم، ولا بتشنيع المخالفين

(١) شرح السنة، الالكايني: ٢٣.

عليهم، فكانوا يكرهون مناظرة أهل البدع، ويتناهون عن نقل شبهاتهم أو عرضها على المسلمين مخافة الفتنة بها. يقول سفيان الثوري: من سمع بدعة فلا يحكمها لجلسائه ولا يلقها في قلوبهم^(١).

وقال الإمام ابن بطة: لست ترد عليهم بشيء أشد من السكوت عنهم^(٢).

وكان الإمام أحمد بن حنبل يعلم تلامذته ذلك المنهج، فلقد كتب إليه أحد تلامذته يستأذنه في أن يضع كتابا يرد فيه على أهل البدع، وأن يحضر مع أهل الكلام فيناظرهم ويحتج عليهم، فكتب إليه الإمام أحمد، يقول: الذي كنا نسمع أدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاز إلى ما كان في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إلا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ، لترد عليهم فإنهم يلبسون عليك وهم لا يرجعون، فالسلامة أن تترك مجالستهم والخوض معهم في بدعتهم^(٣).

(١) شرح السنة للبيهقي ١/ ٢٢٧ نقلا عن السنة للالكائي ٥٦٠.

(٢) الإبانة ٢/ ٣٦٥ - ٣٦٦ نقلا عن السنة ص ٥٦.

(٣) نفسه ص ٥٧.

ولقد شغب أصحاب المنهج المخالف من المعتزلة وغيرهم على أهل الحديث في منهجهم وشنعوا عليهم، وكانوا ينتصرون عليهم بالسياسة أحيانا، كما حدث في زمن محنة الإمام أحمد. ونالوا منهم كثيرا فنسبوهم أحيانا إلى الحشو وأحيانا إلى الجهل، ومحاربة العقل، ولا يخفى الأمر على ذي فطنة، إذا انتصرت السياسة للمذهب أو رأي، فالويل للمخالفين ولو كانوا على الحق المبين.

ولقد صور كثير من علماء المذهب، الموقف الفكري للمخالفين لهم، وأنه لا سند له من علم ديني ولا برهان عقلي، وأن المنهج الذي سلكوه في الغيبيات منهج أحرق، فسادته أكثر من صلاحه، فقال: ... فهو راكض ليله ونهاره في الرد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والطعن عليهما، أو مخاصما بالتأويلات البعيدة فيهما، أو مسلطا رأيه على ما يوافق مذهبه بالشبهات المخترعة الركيكة حتى يتفق الكتاب والسنة على مذهبه وهيهات أن يتفق فهذه حاله إذا نشط للمحاورة في الكتاب والسنة.

فأما إذا رجع إلى أصله وما بني بدعته عليه اعترض عليها بالبحود والإنكار، وضرب بعضها ببعض من غير استبصار واستقبل أصلهما ببهت الجدل والنظر من غير افتكار، فما اغبرت

أقدامهم في طلب سنة، أو عرفوا من شرائع الإسلام مسألة، فيعد رأي أصحابه حكمة وعلمًا وحججًا وبراهين، ويعد كتاب الله وسنة رسوله حشواً وتقليدًا، ويعد حملتها جهالاً وبلهًا يرمون أهل الحق بالألقاب القبيحة... ومقاتلتهم هذه لا تظهر إلا بسطان قاهر أو بشيطان معاند فاجر يصل الناس خفياً ببدعته، أو يقهر ذاك بسيفه وسطوته، أو يستميل قلبه بماله ليضل عن سبيل الله حمية لبدعته وذبا عن ضلالتة، لقد زعموا أنهم أكبر من السابقين في الحصول وفي حقائق المعقول وأهدى إلى التحقيق، وأحسن نظرا منهم في التدقيق، وأن المتقدمين تفادوا من النظر لعجزهم. ورغبوا عن مكالمتهم لقلة فهمهم، لقد ابتدعوا من الأدلة ما هو خلاف الكتاب السنة رغبة للغلبة وقهر المخالفين، ثم اتخذوها ديناً واعتقاداً بعد ما كانت دلائل الخصومات والمعارضات، وضللوا من لا يعتقد ذلك من المسلمين. ومن خالفهم وسموه بالجهل والغباوة^(١). وهكذا يصور إمام السنة موقف المخالفين منهم وتشنيعهم عليهم.

ولقد تناهى السلف فيما بينهم عن منازلة خصومهم في محاور أو مناظرة أو ما شابه ذلك خوفاً من استعمال الألفاظ

(١) من كتاب السنة بتصرف، ص ١٨، المقدمة.

المحملة التي يطلقونها في النفي والإثبات، والتي يلبسون بها الحق بالباطل. ليخدعوا بها جهال الناس.

ولقد أشار الإمام أحمد إلى ذلك الخطأ المنهجي عندهم في أول كتابه "الرد على الجهمية" فقال: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى... إلى أن قال: ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذي عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، يخدعون جهال الناس بما يشبهون، فنعوذ بالله من فتن المضلين^(١). وعند تأمل هذين النصين نجد أن كلا منهما يحمل نفس الأخطاء المنهجية التي يسلكها الخصم في موقفه من السلف، إن القضية عندهم ليست انتصارا للعقل وأحكامه بقدر ما هي رفعة لمنهج القرآن والاعتصام به.

(١) درء تعارض العقل والنقل: ١٥٢.

ومن أبرز هذه الأخطاء المنهجية عندهم:

استعمال الألفاظ المجملة التي قد يلتبس فيها الحق بالباطل،
فإن في نفيها نفيا لبعض الحق، وفي إثباتها إثباتا لبعض الباطل.

يتركون المحكم ويتكلمون بالمتشابه من الكلام، ليخدعوا جهال
الناس بأنهم أصحاب النظر العقلي بما يشبهون عليهم من الكلام.

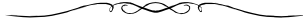
لجوؤهم إلى التأويل لم يكن طلبا للحق في ذاته، وإنما كان
انتصارا للمذهب وإبطالا لرأي الخصم.

التنفير من رأي المخالف باستعمال الألقاب المذمومة
والتشنيع عليهم بالأكاذيب، كالحشوية والعجز والجهل، ومحاربة
العقل ورفض أحكامه.

الاستعانة على المخالف بالسلطان وسيفه بدلا من الرجوع
إلى الحق وأهله.

وهذه الأخطاء السابقة التي أشرنا إليها ليست من باب الرد
على الباطل بباطل مثله، وإنما هي تبيان لما في الموقف الآخر من
أخطاء في المنهج الذي ينسبه أصحابه إلى العقل، وينسبون إلى
منهج غيرهم محاربة العقل.

ويتبين من هذه الأخطاء التي أشرنا إليها مدى الخلاف بين المنهجين في قضايا الغيب، منهج التعامل مع عالم الشهادة ودور العقل في ذلك المنهج، وكيفية التعامل مع عالم الغيب ودور العقل في ذلك، موقف العقل الذي اعتصم بالنص من منطق العقل نفسه، ورأى أنه أكثر أماناً وإيماناً فيما لا سبيل للعقل إليه بذاته، وموقف العقل المخالف الذي رأى أن التخيل العقلي، أو التوهم أو الظنون التي يصلون إليها بالتأويلات العقلية كافية في تحقيق معنى الإيمان بالغيب وسوف تتضح القضية أكثر في حديثنا عن علاقة العقل بالوحي والشرع.



مدارك العقول

بين عالم الغيب وعالم الشهادة



يتصل الحديث عن هذه القضية بنظرية المعرفة من جهات مختلفة.

١- فهو يتصل بها من حيث وسائلها.

٢- ومن حيث موضوعها، ومن حيث غايتها.

٣- من حيث هي كهدف مقصود لذاته وليس من هدفنا الحديث عن نظرية المعرفة في هذه الدراسة، فإن ذلك له مجالات أخرى، ولكن الذي نقصده بالدرجة الأولى هو تحديد علاقة العقل بموضوع المعرفة وغايتها من جانب: وعلاقته بوسائلها من جانب آخر.

ولقد آثرنا استعمال هذا المصطلح "مدارك العقول" لما فيه من دلالة على تمكن العقل من موضوع المعرفة وسيطرته عليها،

واحتوائه لها، مما لا نجده في غيره من المصطلحات المعرفية الأخرى، وهذا المصطلح يطرح علينا مباشرة الحديث عن موضوع المعرفة التي هي "مدارك العقول".

فقد يكون موضوع المعرفة هو عالم الشهادة وما يشتمل عليه من ظواهر ومظاهر.

وقد يكون موضوع المعرفة لا ينتمي إلى هذا العالم الحسي، ولا يمت إليه بسبب كعالم الغيب، ونريد هنا أن نتعرف على مدارك العقل لهذين العالمين، عالم الشهادة، وعالم الغيب، ودور العقل في التعرف على كل منهما.

أولاً: وظيفة العقل في عالم الشهادة:

عالم الشهادة هو المقابل الشرعي للعالم الحسي والمحسوسات لدى علماء المناهج أو المعرفة الحسية، وينطلق موقفنا هنا في تحديد علاقة العقل بعالم الشهادة من توجيهات القرآن الكريم، التي تجعل النظر العقلي والتأمل في آيات الله أفقية كانت أو نفسية مطلباً شرعياً وواجباً دينياً على سبيل الفرض الكفائي أحياناً، وقد يرقى في بعض الأحيان إلى مستوى الفرض العيني على شخص بذاته أو

على جماعة معينين بذواتهم، حيث يلزمهم ولي الأمر ويجبرهم على أداء هذه الوظيفة التي تعينت عليهم، والتي لا ينهض بها سواهم، حتى تستقيم أحوال الأمة بها، ومن حق ولي الأمر أن يعاقبهم - أفرادا كانوا أو جماعة- إذا لم ينهضوا بهذه المسؤولية التي أصبحت بمثابة الدين الواجب الأداء كما إذا تعين على جماعة ممارسة مهنة الطب أو صناعة الأسلحة للجيش، أو فن الهندسة أو القيام بخدمات أخرى لا ينهض بها سواهم.

والقرآن الكريم يحث العقل ويدفعه دفعا إلى التعرف على هذا الكون واكتشاف قوانينه، ومعرفة خصائصه والتعرف على العلاقات المتبادلة بين أنواعه وأجزائه للوقوف على خصائص العلاقات السببية الكامنة فيه، لأن ذلك كله يرتبط برسالة الإنسان في هذا الكون والهدف من وجوده، واستخلافه في الأرض وتنفيذه للأمر القرآني باستعمارها.

وهذه المهام لا تتم للمسلم إلا باكتشاف قوانين الأشياء ومعرفة العلاقات السببية فيها، ليستطيع أن يحقق فيها المعنى الإلهي المقصود من تسخير هذا العالم من سمائه إلى أرضه لصالح الإنسان. ولقد شاع العلم بهذه الآيات القرآنية التي تأمر العقل بالنظر

والتأمل، وأصبحت معروفة للعامة والخاصة، ولذلك سوف أعفى نفسه من سردها في هذا المختصر، ولكن الذي يلفت النظر وأنبه إليه أن منهج القرآن في سوق هذه الآيات كان يأخذ بمبدأ التدرج والترقي من مستوى معرفي إلى مستوى آخر أرقى وأدق، ويفتح أمام العقل مجالات للنظر وآفاقاً أرحب للتأمل كان يجهلها العقل من قبل، لتكون مسرحاً لنظرة العقلي وعمله الفكري. فالكون كله قد أعدّه الخالق سبحانه وجعله مهياً للنظر العقلي؛ ليجعل منه حبلاً ممدوداً وسببياً موصولاً بين الإنسان العارف وموضوع المعرفة من جهة وغاية هذه المعرفة وهدفها من جهة أخرى، ولذلك كانت آيات القرآن المتصلة بهذا الموضوع تختم غالباً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أو ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

١- نجد آيات القرآن في هذا الصدد تأمر الإنسان بالنظر إلى البيئة التي يعيش فيها الإنسان وما فيها من أصناف الموجودات من حيث كيفية الصنعة، دقة وإتقانها، فنقول له: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿٢٢﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٢٣﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٤﴾

وَالْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠١﴾^(١)

والسؤال في هذه الآيات يدور حول كيفية الصنعة وليس عن وجودها ، والفارق كبير بين مضمون السؤالين؛ فالسؤال عن كيفية الصنعة لا يملك الإجابة عنها إلا صانعها أو من كان في مستواه من العلم بكيفيتها والغاية والقصد منها... ولذلك فإن النظر العقلي هنا يدرك من مضمون السؤال حسب استطاعته فقط فهو يدرك منها ولا يدركها، لتبقى القضية كلها في نطاق الإعجاز من جانب ومطلبا شرعيا للعقل من جانب آخر.

٢- وأحيانا يطلب القرآن من العقل ألا يكتفي بمجرد النظر إلى هذا الكون، بل لابد أن يخترق ظواهره ليكتشف ماذا في داخله، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٢)، ومعلوم أن الأمر بالنظر في الشيء أعلى درجة من مجرد النظر إلى الشيء، فليصعد الإنسان إلى القمر - إن شاء - أو إلى ما شاء من الكواكب، وليهبط - إن شاء - في باطن الأرض مكتشفا وباحثا، فإن ذلك

(١) سورة الغاشية: الآيات [١٧ - ٢٠].

(٢) سورة يونس: آية [١٠١].

كله مطلب شرعي في منهج القرآن، لأن رسالة الإنسان في الكون واستعمار الأرض لا تتم إلا بذلك، وحين يخاطبنا القرآن بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(١)، فإنه يطلب منا بصيغة الأمر أن نعمل على عمارة الأرض بكل ما نستطيع، والتقصير في تنفيذ هذا الأمر معصية جماعية تحني الأمة ثمرها فقرا ومرضاً ومذلة وهواناً وتخلفاً وتبعية للأمم الأرض.

العقل والكون:

و حين يذكرنا القرآن بأحوال الأمم السابقة وكيف جرت عليهم السنن الإلهية في الكون من ازدهار للحضارات أو انهيار لها، فإن ذلك كان على سبيل التعليم والإفادة من الدرس والعبرة من التاريخ، ليكون تاريخ الإنسان نفسه محالاً رحباً لعمل العقل، ليتعرف منه على أساس ازدهار الحضارات وانهيارها، ليعي العبرة من قص القرآن لهذه السنن وعلاقتها بالأفراد والجماعات، فالكون كله مسرح للعقل وميدان لعمله، وتاريخ الإنسان كله مسرح لنظر

(١) سورة هود: آية [٦١].

العقل، والعقل مهياً للسيطرة الكلية على الكون واحتواء تاريخه، فكراً وتأملاً، مقدمات ونتائج، علاقات بين الأشياء، أسباب ومسببات، تسخيراً وتوظيفاً، وتلك مهمة العقل ووظيفته في عالم الشهادة، وذلك واجبه الشرعي الذي ندبه القرآن له وحثه عليه وأمره به.

وليست من قبيل المصادفة أن يلفت القرآن نظر المسلم إلى بعض آيات بعينها من آيات الله في كونه جعلها اسماً وعلماً على بعض سور القرآن، وكأنه يقول للعقل في هذه اللفتة، تلك قضية تحتاج إلى نظر وتدبر، وقد يقرأ المسلم هذه الآيات دون أن يعيرها حقها من النظر والتدبر مع أنها تحتاج من القارئ أن يقف أمامها طويلاً وطويلاً، لأنها جاءت بصورة شاملة لكل أنواع الموجودات غالباً.

١- فهناك آيات تنتمي إلى عالم الحشرات جاءت علماً على بعض السور للقرآن، مثل سورة النحل، سورة النمل، سورة العنكبوت.

٢- وهناك آيات تنتمي إلى عالم الأفلاك والطبيعة كانت علماً على بعض سور القرآن، مثل سورة الشمس، سورة القمر،

سورة الرعد.

٣- وهناك آيات تنتمي إلى عالم النبات، مثل سورة التين والزيتون.

٤- وآيات تنتمي إلى عالم الحيوان، مثل سورة البقرة، سورة الأنعام.

٥- آيات تنتمي إلى عالم الزمان، وبعض أوقاته مثل سورة الليل، سورة الضحى، سورة العصر، سورة الفجر.

٦- آيات تعبر عن الكون كله، سورة الملك.

٧- آيات تعبر عن أصل الإنسان في بعض مراحل، سورة الإنسان.

القسم في القرآن الكريم :

ويقسم القرآن ببعض الآيات تنبيهاً للعقل إلى أهميتها في

حياة الإنسان وإلى ضرورة الاهتمام لها فكرياً وتأملاً وتوظيفاً: ﴿

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿١٠﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعْلَمُونَ عَظِيمٌ

﴿٧٦﴾ (١).

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٦﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (٢).

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿٧٨﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿٧٩﴾﴾ (٣).

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿٨٠﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿٨١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿٨٢﴾﴾ (٤).

هذه بعض آيات الله في كونه التي يستحث العقل ويدفعه دفعا للنظر والتأمل فيها، وهذا الكون هو عالم العقل ومسرحه الذي يملك العقل أدوات التعامل معه، ويستطيع السيطرة إن شاء على قدر استطاعته، يجعل القرآن عمل العقل فيه وتعامله معه مطلبا شرعيا وواجبا دينيا وعبادة يتقرب بها إلى الله يعاقب المجتمع كله على التفريط فيه أو الإعراض عنه.

ومن الأمور اللافتة للانتباه أن الآيات السابقة تتسع دائرتها

(١) سورة الواقعة الآيتان [٧٥، ٧٦].

(٢) سورة الحاقة الآيتان [٣٨، ٣٩].

(٣) سورة التكويد: الآيتان [١٧، ١٨].

(٤) سورة الانشقاق: الآيات [١٦ - ١٨].

لتشمل الكون كله من عالم الأفلاك إلى عالم النبات وعالم الجماد، فليس في الكون ما هو غريب على العقل، وليس فيه ما هو فوق مستوى الإدراك العقلي، أو يعز على العقل مناله، فالكون كله موضوع بحثه وموضوع كده وكبده، وحين يعمل العقل ويستفرغ وسعه بحثا وفكرا وتأملا يكون حينذاك في عبادة شرعية لله، وكلما ازداد عمله وعلمه ازداد الله خشية ومن الله قربا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ لِلَّهِ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وينبغي أن يبدأ توظيف العقل في عالم الشهادة من هذا المنطلق القرآني، ومن خلال تحديد القرآن لوظيفته في هذا الكون: لقد ندبه للنهوض بها وأتمنه عليها، وطلب منه إعمار الكون تبعاً لهذا المنهج باكتشاف القوانين، والتعرف على العلاقات السببية الكامنة في الأشياء، ليسخر الكون كله لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه، وليحقق في ذلك معنى الاستخلاف عن الله في الأرض.

ومن جانب آخر فإن النكوص عن أداء هذه الوظيفة إهدار لطاقة العقل وضياح لرسالة الإنسان، وجريمة في حق الدين والدنيا معاً، وعلاقة العقل بعالم الشهادة على هذا النحو السابق تقوم على أسس معينة يعتبرها القرآن أركاناً لتكليف العقل بهذه الوظيفة، بحيث

إذا تخلف ركن منها سقط عن الإنسان ما يقابله من التكاليف الشرعية.

١- إن العقل يملك القدرة المؤهلة له للتعرف على هذا العالم واكتشاف قوانينه وتحديد العلاقات السببية بين أنواعه، ليجعل منه مملكته التي استخلفه الله عليها.

٢- إن الله تعالى قد زود الإنسان بالحواس الخمس، وجعلها جنودًا للعقل بما يتعرف بها على كل محسوس، وفي نفس الوقت هي مناط مسئولية الإنسان أمام الله يوم القيامة، إذا أساء استعمالها أو أهمل توظيفها ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (١).

والتكاليف الشرعية منوطة بهذه الأدوات المعرفية وجودا وعدما، فإذا تخلف واحد منها سقط عن الإنسان ما يقابلها من التكاليف الشرعية، ولذلك كان من القواعد الأصولية، إذا أخذ ما وهب سقط ما وجب. وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا

(١) سورة الإسراء: آية [٣٦].

عَاتِلَهَا ﴿٧﴾^(١)

٣- هذه الحواس هي روافد المعرفة العقلية عن عالم الشهادة، هي جواسيس العقل وعيونه حسب تعبير الغزالي، وبدون هذه الجواسيس لا يستطيع العقل أن يعلم شيئاً يقينياً عن عالم الشهادة، فمن فقد حاسة البصر فاته العلم بعالم المرئيات، ومن فقد حاسة السمع فاته العلم بعالم المسموعات وهكذا شأن بقية الحواس.

فكل حاسة مسلطة على عالم معين تتعرف عليه وتنقل إلى العقل إحساسها بهذا العالم المعين.

حاول - أيها القارئ - أن تتخيل معي إنساناً خلقه الله بدون هذه الحواس الخمس، ماذا يمكن أن يتكون لديه من معلومات يقينية عن هذا العالم الحسي؟ ولذلك كان من الأصول المعرفية أن من فقد حساً فقد علماً، فمن العبث أن تسأل الأعمى عن الفرق بين الأسود والأبيض، أو تسأل الأصم عن الفرق بين صوت الإنسان وصوت الحمار، وهذا المعنى يصدق على من يملك

(١) سورة الطلاق: آية [٧].

الحواس، لكنها تعطلت عن العمل لوجود الآفة بها أو وجود مانع قوي كالمريض بالصفراء مثلاً فإنه قد يحس طعم العسل مرا والذي على بصره غشاوة قد يرى الأشياء على غير ما هي عليه، فيرى الصغير كبيراً والكبير صغيراً.

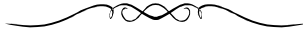
٤- أن ما غاب عن حواس الإنسان وتجربته الشخصية، في هذا العالم فقد غاب عن العقل العلم اليقيني به عن هذا الطريق، طريق التجربة الحسية، لكن قد يعلمه عن طريق آخر غير تجربته هو، كأن يعلمه عن طريق خبر المعصوم عليه السلام مثلاً أو عن طريق ما تواتر العلم به عن الأمم السابقة ... إلى غير ذلك من طرق العلم الأخرى، فكل ما ثبت صدقه عن طريق تجريب الغير له وتم العلم به لزم الأخذ به والعمل بمقتضاه ممن لم يجرب بنفسه، وهذا في عالم الشهادة معلوم بالاضطرار من كل أحد.

فالمريض لا يسوغ له أن يمتنع عن تناول الدواء الذي وصفه الطبيب بدعوى أنه لم يجربه قبل ذلك بنفسه، والأعمى لا يسوغ له أن ينكر ضوء الشمس بحجة أنه لم يره بنفسه، وهكذا يتواتر

العلم لدى العامة والخاصة بكل ما ثبت صدقه مما جربه غيرنا، ولم تدركه حواسنا، وأصبح العلم به، والعمل بمقتضاه لازماً لنا لزوم ما جربناه بأنفسنا وأدركناه بحواسنا، ولا فرق في ذلك بين ما جربه الشخص بحواسه وما جربه غيره، فالأخذ بكل منهما ضرورة عقلية كمصدر من مصادر المعرفة.

ويدخل تحت ما جربه غيرنا العلم بأخبار الأمم الماضية، والأخبار المتعلقة بالعصر الذي نعيشه مما لم يقع منه تحت حواسنا، وما جربه غيرنا منها، كالعلم بسور الصين العظيم، وأن الكعبة في مكة وأن الهرم الأكبر بالجيزة في مصر وكالعلم بنبوة الأنبياء السابقين.

ومما ينبغي أن يعلم أن هناك أموراً كثيرة يقتصر العلم بها على مجرد الإخبار عنها فقط لأن الحواس لا تناولها بسبب غيابها عن الحواس، وليس لنا طريق إلى العلم بها إلا الخبر المتواتر، وهذا يشمل علمنا بتاريخ الإنسانية كله فإنه لم ينقل إلينا إلا عن هذا الطريق، ومن العبث إنكار تاريخ الأمم الماضية بدعوى عدم التجريب أو عدم السماع له.





الدين والدولة بين التاريخ والواقع



ظهر في أدبيات القرن العشرين مجموعة من الثنائيات على
ألسنة المثقفين وفي كتاباتهم للدلالة على سياق ثقافي تاريخي معين مثل
ثنائيات، الدين والدولة، العلم والدين، الدين والسياسة.. الخ، وارتبط
ظهور هذه الثنائيات في أذهان الكثيرين بالنهضة الأوروبية، وطبيعة
الصراع الذي حدث في العصور الوسطى بين الكنيسة والعلماء، إذ
من المعروف تاريخياً أن عصر النهضة بأوروبا لم يبدأ إلا بعد ثورة
العلماء على رجال الكنيسة والدعوى إلى التخلص من سطوة رجالها
على عقول الناس بمجموعة من الأوهام والخرافات التي دعت الناس
إلى الإيمان بها على أنها دين وعقيدة، ووحى سماوي، فقد كانوا
يؤمنون بأن الأرض هي مركز الكون وأنها ليست بكروية، وأن

الأرض تدور حول الشمس.. الخ، وكانوا يعتقدون أن ذلك دين وعقيدة ينبغي الإيمان به على أنه وحي من السماء.

وحين اطلع علماء أوروبا على العلم الوافد إليهم من الحضارة الإسلامية في أسبانيا وجزيرة صقلية وجربوه بآلائهم العملية وجدوه يتناقض تماما مع الدين الذي يبشر به رجال الكنيسة، ولما أثبت التجارب صدق هذا العلم الجديد، وأن ما يدعو إليه رجال الكنيسة قد بين العلم أنه جهل وخرافة بدأوا يرفضون آراء ومعتقدات رجال الكنيسة وبنوا للناس أنما خرافات وأوهام ليس لها سند من العلم ولا من العقل، وهنا بدأت قصة الصراع بين العلماء ورجال الكنيسة، وأعلنت الكنيسة حربا شعواء على العلم الجديد الذي أسموه بالعلم الشيطاني واستعانوا على العلماء بالسلطة السياسية (الإمبراطور) الذي كان يصدر قرار تعيينه وعزله من الكنيسة، ولا يخفي على أحد من المشتغلين بدراسة التاريخ والحضارة قصة هذا الصراع المرير بين العلماء وسلطة رجال الكنيسة، وكيف اصطلى العلماء بنيران هذه السلطة من قتل وإحراق ونفي وتعذيب، وفي النهاية لم يصح إلا الصحيح. قد تمخضت هذه القضية عن انتصار العلم والعلماء، وبدأت أوروبا تهضمتها الحديثة تحت مظلة العلم والمنهج العلمي

وانتصرت السياسة للعلماء وبعد أن كان يصدر قرار تعيين الإمبراطور من الكنيسة أصبح الإمبراطور هو الذي يصدر عنه قرار تعيين رجال الكنيسة وعزلهم وصاروا موظفين يتقاضون رواتبهم من الدولة، وكانت فرنسا من أوائل الدول التي أعلنت أنها دولة علمانية تقوم أنظمتها السياسية والاجتماعية على "العلمانية المطلقة" التي تفصل بين الدين والدولة، وتعمل على إقصاء كل ما هو كنسي عن شئون الحياة في فرنسا، واتخذت من كتاب "العقد الاجتماعي" دستوراً لها في النظام السياسي والاجتماعي، ثم انتشرت هذه الثنائيات في الأدبيات الفرنسية الدين والعلم، الدين والسياسة، الدين والدولة" وكان مصطلح العلمانية هو التجسيد العملي لقضية إقصاء الدين عن شئون الدولة، وتزامن ذلك مع ظهور بعض المذاهب الاجتماعية التي تناولت قضية الدين على أنه مرحلة تاريخية انقضى عصرها بظهور العلم الذي احتل مكانة الدين عندهم واستطاع أن يفسر لهم ظواهر الكون وغوامضه وانتشرت آراء أوجست كونت، "دور كايم" و "ليفبي بريل" التي جسدت هذه القضية في ضرورة إقصاء الدين عن شئون الحياة سياسياً واقتصادياً باعتباره مرحلة تاريخية انقضى وقتها بظهور العلم وساعد ذلك على انتشار هذه الثنائيات التناقضية في أوروبا.

انتقلت هذه المصطلحات ومعها مصطلح العلمانية.. إلى العالم الإسلامي، وهي محملة بفكرة التناقض بين "الدين والدولة" وبين الدين والعلم، والدين والسياسة... الخ. بمعنى أن سياسة الدولة لا ترتبط بالدين وأن العلم يتناقض مع الدين وأن السياسة لا دين لها. وإن أول من طبقها عمليا في السياسة هو مصطفى كمال أتاتورك حين تولى السلطة في تركيا بعد الانقلاب الذي قاده ضد السلطان عبد الحميد، فألغى اللغة العربية، والتعليم الديني من مناهج الدراسة، وألغى الكتاتيب واستبدل الزى الأوربي بالزى التركي البديل عن الانتماء الإسلامي، ومن المعروف أن مصطفى كمال أتاتورك من أصل يهودي ينتمي إلى يهود الدونمة، تربى في أندية روتاري أوربا، وكان هو رأس الحربة التي أصابت الخلافة العثمانية في مقتل وانتشرت في عهده هذه الشائعات في تركيا وبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا وأخذ بعض المثقفين العرب يربط بين نهضة أوربا وظهور هذه الشائعات ومصطلح العلمانية الذي يجسد فصل الدين عن شئون الدولة.

كما حاول بعضهم أن يربط بين تقدم أوربا ونهضتها العلمية وتخلصها من الدين المسيحي بدعوى أن ارتباطها بالدين كان سببا في

تخلفها، وشيوع الخرافات والجهل بين أبنائها طيلة العصور الوسطى، وأنها لم تنهض إلا بعد أن أعلنت رفضها للدين واعتناقها العلم والعقلانية بديلا عن الدين وأخذ دعاة العلمانية في بلاد الشام ومصر ينادون بضرورة التخلص من هذه الثنائية بإقصاء الدين عن مناهج الدراسة والسياسة وشئون الاقتصاد حتى تنهض بلادنا، كما نهضت أوروبا فبشر بعضهم صراحة برفض الإيمان بالغيب واعتبره خرافة. وبشر بعضهم بفصل الدين عن السياسة واعتبار الدين مسألة شخصية فردية يمكن ممارسة شعائرها في داخل الأسرة ولا علاقة للدين بشئون الحكم والسياسة أو الاقتصاد...

وساعد على شيوع هذا اللون من التفكير ما كان عليه العالم العربي من تخلف علمي وسياسي واقتصادي إذا ما قورن بالعالم الغربي، وكانت هذه الفجوة التي تتسع يوما بعد يوم بين الشرق والغرب من أهم أسباب انتشار هذه الثنائيات في العالم العربي.

هنا أمور تحتاج إلى توضيح حتى يتبين للقارئ مدى عمق المأساة التي يعيشها بعض المشتغلين بالتنظير بين العالم الإسلامي والغرب.

١- لم يتنبه هؤلاء إلى أن الإسلام ليس هو الكنيسة في موقفها من العلم والعلماء، وأن الآراء التي اعتنقها رجال الكنيسة

في العصور الوسطى لا تمت بسبب إلى الدين المسيحي الذي بشر به السيد المسيح عليه السلام، وإنما هي خرافات وأضاليل استدل بها رجال الكنيسة عقول السذج من الناس، حتى يظهروا أمامهم أنهم المختصون بعلم الأسرار والكهنوت التي لا يعلمها إلا هم، والدين المسيحي، بل كل دين، هو بريء مما كان يدعيه رجال الكنيسة دينا ووحيا في هذا الشأن.

٢- إن أوروبا لم تنهض لأنها تخلصت من الدين المسيحي، بل نهضت أوروبا لأنها أخذت بأسباب النهضة من العلم - والحرية - والديمقراطية والتفكير العلمي، ولا ينبغي أن يخدعك زخرف القول بأن أوروبا تخلصت من المسيحية لكى تنهض، فإن المسيحية تسكن في مفردات الحضارة الأوروبية وفنونها وآدابها، يقول الفيلسوف الفرنسي رينان: "إن كل شيء يمكن أن يضمحل في عقولنا إلا الدين"، ويقول "البوت" الشاعر الكبير في المسيحية نمت فنوننا وتأصلت قوانين أوروبا... وليس لتفكيرنا كله من معنى خارج الإطار المسيحي. وقد لا يؤمن أحدنا بأن المسيحية صحيحة، لكن كل ما يقوله أو يفعله نابع من تراثه المسيحي ويعتمد في معناه على ثقافته المسيحية... وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن لها أن

تبقى إذا اختفى منها الإيمان المسيحي، فإذا ذهبت المسيحية فسوف تذهب كل ثقافتنا"، هذا هو حقيقة الموقف لمفكري أوروبا من المسيحية كدين وعقيدة يستلهمونها في ثقافتهم"، وشئون حياتهم، وإذا كان هذا هو موقف الفلاسفة والمفكرين فإن الموقف الرسمي لسياسة أوروبا من المسيحية كان أشد من ذلك تمسكاً بالمسيحية كثقافة للشعوب ومصدر إلهام لهم، فحين تولى هتلر (أبو النازية) رئاسة الوزارة في ألمانيا كان أول إعلان له هو أن الثقافة الإنجيلية هي الثقافة الرسمية لألمانيا، وأمر بأن تعلق صورة السيدة العذراء وابنها على جدران المدارس، وأعلنت فرنسا أنها حامية لأتباع المذهب الكاثوليكي في العالم، وأرسلت البعثات التبشيرية إلى بلاد الشام وشمال إفريقيا، وبنت لذلك مدارس الفرنسيين سكان والفرير في كل مستعمراتها، وكذلك فعلت بريطانيا وبلجيكا وهولندا وأمريكا، ولا تكاد تخلو دولة أوروبية من القيام بهذا النشاط التبشيري بالمسيحية في كل أنحاء العالم. فهل من المعقول أن نصدق القول بأن أوروبا رفضت يدها من المسيحية..؟ ولماذا لم يقرأ أصحاب هذه الأقوال تاريخ التبشير بالمسيحية في العالم الإسلامي؟

٣- إن أوروبا لم ترفض المسيحية كدين وعقيدة، ولكنها رفضت سطوة رجال الكنيسة ورفضت خرافاتهم وجهلهم باسم الدين، والإسلام في حقيقته يبارك ثورة العلماء على الخرافة والجهل، لأنه جاء للقضاء عليهما معا، فالإسلام جاء ليؤسس العلم والتفكير العلمي كمنهج في التفكير والسلوك، ومنهج في السياسة والحكم، فكيف يقاس هذا بذاك؟ فمن المعروف أن طلب العلم في الإسلام فريضة ومزاولة العلم عبادة وتسبيح لله، وكلما أحيا العالم حقا فقد ألمات باطلا، ومن هنا كان العلماء ورثة الأنبياء، وكان مداد العلماء عند الله يوم القيامة يوزن بدم الشهداء.

٤- إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن... ما هي مبررات هذه الثنائية في عالمنا الإسلامي (الدين والدولة -أو الدين والسياسة- الدين والعلم)؟ إن طرفي هذه الثنائية لا تعارض بينهما في الإسلام، بل هما (توأم) يتعاونان ولا يتعارضان، فالإسلام يجعل العلم عبادة والعلم الصحيح دين وعقيدة، والسياسة هي حراسة الدين وسياسة الدنيا في حراسة الدين، ولا انفصال بين طرفي هذه الثنائية أبدا في التصور الإسلامي

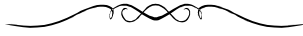
وأصحاب هذه الأصوات يجهلون من حقائق الإسلام بقدر ما يجهلون من الظروف والملايسات والأسباب التاريخية التي أفرزت هذه الثنائيات في أوروبا.

٥- لقد التقت أهواء العلمانيين على تمجيد النموذج الغربي - حضارة وثقافة - فنادوا ولا زالوا ينادون بتقليد النموذج الغربي بإقصاء الإسلام عن السياسة والاقتصاد والتعليم. وأخذ بعضهم يوحى إلى بعض زخرف القول، ليزينوا هذه الأكذوبة عند أصحاب القرار التنفيذي، ليعمل على تقليص منهج الدين في المؤسسات التربوية أو يحدفها بالكلية حتى ينشأ الجيل بلا عقيدة ولا دين، ولو قرأ هؤلاء تاريخ الحضارات الإنسانية لأشفقوا على أنفسهم، لأنه لا توجد حضارة بلا دين أو اعتقاد تستمد منه روحها وتكون مصدر إلهام لها.

٦- ومن الأمور اللافتة للانتباه أن أصحاب هذه الأصوات ربما استقر في أذهانهم الربط بين الواقع المتردي للمسلمين الآن، والإسلام كدين وعقيدة، وهذا الربط خطأ في المنهج كما هو خطأ في الواقع. ذلك أن التخلف الذي يعيشه المسلمون لا يحسب على الإسلام، بل هو دليل على أن واقع المسلمين في واد وإسلامهم في واد آخر. ولو كان واقع المسلمين تطبيقاً

عملية للإسلام لكانوا صناعا للتاريخ كما صنعوه من قبل،
ولسادوا به الدنيا كما سادوها من قبل. يوم أن كان الإسلام
لهم عقيدة وشريعة علما وعملا اعتقاداً وسلوكاً، ومن المعلوم
أن المبادئ الصحيحة في ذاتها لا ينبغي أن نحكم عليها بالخطأ
أو الفساد إذا لم يحسن المرء تطبيقها في الواقع، أو لم يطبقها
بالكلية وإنما يعود الخطأ واللوم على الإنسان نفسه الذي
يدعي الانتساب إلى هذا الدين أو ذلك المبدأ، فإن واقع
المسلمين المتردي قد أسهم إلى حد كبير في انتشار هذه
التثنيات، لأنهم لم يأخذوا بأسباب النهضة، ولم يسلكوا
سبيلها كما سلكها غيرهم، ومن طلب النهضة بغير الأخذ
بأسبابها فقد طلب المستحيل، ذلك أن واقع المجتمعات
الإسلامية يكاد يكون في خصومة دائمة منذ ما يقرب من
ثلاثة قرون مع أسباب هذه النهضة من الحرية والعدالة
والسياسة والعلم والمنهج العلمي، وكل هذه القيم النهضة
قد أمرهم بها الإسلام وجعلها مفتاح الخلافة والاستخلاف
ومناطق تحقيق وظيفة التسخير والتعمير ونسوا العمل من
أجلها وانصرفوا من بين أيديهم الأخذ بأسباب النهوض
وانصرفوا عقولهم عن الاشتغال بها.

أنفسهم، ويتحملوا نتائج هذا الإهمال تخلفا وجهلا وتهميشا في التاريخ. ويوم أن يحس العالم بكرامته، ويشعر المفكر بحريته، ويأمن صاحب الرأي على نفسه وعرضه وأهله يكون المجتمع قد وضع قدمه على البداية الصحيحة، للسير في الطريق الصحيح وتحتفي هذه الثنائيات من أدبيات المجتمع المسلم، حيث ينتصر العلم للدين ويحتضن الدين كل علم صحيح، لأن الدين حق والعلم الصحيح حق، ومن المحال أن يتعارض الحق مع الحق، وإذا ظهر أمام بعض المفكرين ما يظنه متعارضا فعليه أن يعيد النظر فيما يدعيه ديناً، فقد لا يكون ديناً صحيحاً أو لا علاقة له بالدين، وقد يكون ما معه من علم ليس علماً صحيحاً وإنما هو من مواريث القوم وعاداتهم، أما أن يكون الدين حقاً والعلم صحيحاً فمن المحال أن يقوم بينهما التعارض، وهذا ما عليه الإسلام وما يؤمن به المفكرون المسلمون.



الخطاب الدينى المفترى عليه



احتل الحديث عن الخطاب الدينى مساحات كبيرة من الكتابات الصحفية والأحاديث اليومية فى أجهزة الإعلام، وكذلك تعددت الندوات، وعقدت المؤتمرات الكثيرة وأسهم بالمشاركة فيها لفيف من المثقفين المتخصصين فى العلوم الإسلامية، ومن الذين لا علاقة لهم بهذا اللون من الدراسات ولا تربطهم بها صلة إلا مجرد الحضور فى مثل هذه المؤتمرات واللقاءات الثقافية تلبية منهم للدعوة الموجهة إليهم من القائمين على إعداد هذه الندوات، وربما كان بعضهم - كما هو واقع - من حملة الأقلام التى لا تكتب عن الإسلام إلا منفردين منه أو محرضين على الملتزمين به أو ساخرين من الدعاة إليه.

من يتابع ما كتب وما أذيع خلال العقد الأخير خاصة بعد أحداث سبتمبر - يتبين له أن هناك أقلاما وعقولا كانت

جاهزة ومعدة سلفا للانقضاى على الخطاب الدينى، وأحيانا على خطاب الدين نفسه، كما لو كانت القضية عبارة عن معركة قد تم الإعداد لها بمفردات ومصطلحات أشبه بالقنابل أو المقذوفات النارية، التى حملت فى لىيها كل أسباب تأخر المسلمين وأسباب أزماهم الراهنة (اقتصاديا وعسكريا، وثقافيا وربطتها بالخطاب الدينى، وحملته أوزار الأمة وأوزار واقعها المؤلم، فوجدنا من يطالب بتجديد الخطاب الدينى فيما يتعلق بقضايا المرأة حتى نعيد إليها حقوقها السلبية بسبب الخطاب الدينى، ووجدنا من يطالب بتجديد الخطاب الدينى فيما يتصل بقضايا الجاد وثقافة السلام، و.... و.... وما أكثر المعطوفات من الأزمات الراهنة التى تسبب فيها الخطاب الدينى عند هؤلاء وهؤلاء، وبلغت خطورة الأزمات التى ترتبت على الخطاب الدينى أن عقدت له ندوات بفرنسا لترسم للمسلمين منهج التغيير والتجديد للخطاب الدينى.

لماذا التجديد ؟

ولابد أن نشير هنا أولا إلى أننا لسنا ضد التجديد فى الخطاب الدينى أسلوبا ومنهجيا وموضوعا على مستوى مفردات المناهج الدراسية — وهو الأهم من وجهة نظرنا — وعلى مستوى

الخطاب الدعوى والإعلامي، فهذا أمر ننبه إلى أهميته كمطلب ديني وأمر شرعي نادينا به ودعونا إليه وما زلنا ندعو وننادي بأهميته تجسيدا لروح الدين نفسه وتحقيقا لمقاصد الشريعة التي تدور مع المصلحة المعتبرة شرعا وجوداً وعدماً، ومن هنا كان من الآثار التراثية المحفوظة أنه حيثما وجدت مصلحة المسلمين فثمة شرع الله، وكان ﷺ يرسل الدعاة ويوصيهم بأن يكونوا مبشرين لا منفريين، وأن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم، ومن يطالع أجديات علم أصول الفقه يتيقن تماماً من أهمية التجديد والاجتهاد حسب النوازل ومستحدثات العصور، لكن الذي قرأناه ونقرأه وسمعناه ونسمعه لا يتصل بالخطاب الديني فقط، بل يتصل بعضه بخطاب الدين نفسه، وفرق كبير بين تجديد الخطاب الديني الذي ندعو إليه ونطالب به والقول بتجديد خطاب الدين نفسه الذي يدعو إليه هؤلاء بوعي منهم بخطورة هذه القضية أو لا وعي.

ولقد كثرت الكتابات والأحاديث عن تجديد الخطاب الديني حتى أصبح الحديث عنه ممجوجاً، وأصبحت كلمة "تجديد" كلمة هولامية لا مضمون لها ولا تحمل معنى محدداً، فما هو المطلوب تحديداً تحت هذا العنوان ؟ وهل الغاية المطلوبة هو تجديد

الخطاب الدينى أم المقصود تحديد خطاب الدين نفسه ؟ وإذا كان بعضهم يكتب صراحة بأنه لا ثوابت هناك ولا مقدسات، وإذا كان البعض يكتب صراحة بأن النصوص الدينية ترتبط بزمنها تاريخيا ومكانيا وكذلك فإن الأحكام الشرعية التي يتضمنها النص الدينى ليس لها عندهم صفة العموم ولا الإطلاق، بل لابد من تغيير هذه الأحكام التي قد سنناها وأعطيناها صفة الإطلاق والعموم، ولا يغيب عن ذهنه أن يضرب لنا المثال بالحكم الشرعي الذي يجب تغييره، وهو نصيب المرأة في الميراث، والحجاب وبعضهم أعلنها صراحة بأن الإيمان بالغيبيات هو سبب ما نحن فيه من نكسات وتأخر إلخ..

فهل هذا حديث عن تحديد الخطاب الدينى أم هو حديث عن خطاب الدين نفسه ؟! ووراء هذا اللون من الحديث ما وراءه إلخ.

إن الخطاب الدينى يدور على ألسنة المتحدثين والدعاة وفي كتاباتهم - حول قضايا أربع - العقائد - العبادات - المعاملات - الأخلاق وأن العقائد والعبادات والأخلاق تمثل ثوابت الدين وأساسه وأغلبها تتفق عليه الأديان السماوية الثلاثة، فإن ما صح من التوراة والإنجيل قد صدقه القرآن في هذه القضايا الثلاث، ويقيني أن

الخروج من الأزمات التي يعاني منها المجتمع لا يحتاج إلى تجديد الخطاب الديني بقدر حاجته إلى تفعيل الدين وربط حركة المجتمع بأوامره ونواهيه، لأن تغيب الدين عن حركة المجتمع قد أسلم الأمة كلها إلى نوازع شيطانية تتحكم فيها أهواء النفوس المريضة فاستباححت الحرمات وداست المقدسات لأنه لم يعد هناك ما يصون الحرمات، ولا يحمي المقدسات بسبب تغيب الدين عن حركة المجتمع، فالأولى لانتشال الأمة من هذا السقوط أن يطالبوا بتفعيل الدين حتى تصان حرمت الأمة وتحمي مقدساتهم، فلو كان الدين حيا في قلوب الأمة، لما نُهبت الأموال من البنوك، وما احتكر تاجر قوت الأمة، وما تحول الطبيب إلى مضارب بصحة الإنسان، وما تحول المهندس إلى خائن في مواد البناء، وما... الخ، لأن في تفعيل الدين إحياء للرقابة الذاتية في داخل الإنسان وإحياء لضميره، فيه حياة لقلبه من الموات، فيه إصلاح لقلبه من الفساد.

مراقبة لله في سره وعلايته وهذا وفي هذا ينبغي أن نتلمس المداخل الصحيحة للإصلاح وإن كنا حقا نريد الإصلاح، وصدق الرسول ﷺ حين قال: « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » فمن هنا ينبغي أن

نبدأ بتفعيل الخطاب الديني، لقد ربط البعض بين الخطاب الديني وظاهرة الإرهاب، والذين روجوا لهذه الأكذوبة هي مراكز البحوث التي أسستها الصهيونية ورصدت لها الميزانية الضخمة، لكي تروج للفكر الصهيوني ضد الإسلام والمسلمين في أمريكا وأوروبا، وكان أول ما أطلق هذا المصطلح الكريه على جماعة حماس في فلسطين، ثم تناقلها - للأسف الشديد - الإعلام العربي وقت أن كان الإعلام يتغنى بثقافة السلام، ولاكتها الأقاليم كوصف ملازم للمسلمين وإفراز ثقافي للخطاب الديني في الإسلام، ولقد ظلموا الحقيقة بقدر ما ظلموا الخطاب الديني في هذه القضية، فإن للإرهاب المعاصر أسبابا اجتماعية واقتصادية وسياسية يقف على قمتها الطرف العالمي الظالم لقضية فلسطين وأبناء فلسطين، وهذا التواطؤ العالمي الذي لا نظير له في تاريخ الإنسانية على ظلم شعب ضاع وطنه وعرضه ومستقبله وأمله، وإذا رفع الواحد منهم حجرا في يده يدافع به عن نفسه ووطنه جعلوه إرهابيا ومتطرفا رافضا للسلام. أما من يدك منزله بالصاروخ والدبابة فهو رجل السلام الذي يستحق الجوائز.

هل سمعتم أو قرأتم في التاريخ قلبا للحقائق كما يجري الآن حول هذه القضية، ولماذا يغمضون أعينهم عن الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة وينسبونها إلى الخطاب الديني... ولماذا لم يقرأوا

الخطاب الديني الإسرائيلي، ليتعرفوا على مناهج التربية الدينية في إسرائيل، التي تربي أبنائها على التقرب إلى الرب بقتل العربي والفلسطيني واغتصاب أرضه وهتك عرضه.

إن الخطاب الديني الإسرائيلي هو المادة الأساسية التي يتشكل منها القرار السياسي الإسرائيلي في تحديد علاقتها بالعرب وبالأرض وبفلسطين، ليجعل منها شعبا مختارا، ويجعل من أرض فلسطين هدية الرب لإسرائيل ويجعل من دم العرب قربانا يتقرب به الإسرائيلي إلى ربه، فمال العربي وأرضه وعرضه مباح لليهودي يجب أن يستولى عليه ليرضي به ربه، هذه أمور تمثل الثوابت المقدسة في الخطاب الديني الإسرائيلي، فأين صوت أمريكا من ذلك؟!

ولك أن تقرأ بعض المفردات لما يحتويه الخطاب التوراتي وينادي به الخطاب الديني في مناهج الدراسة في إسرائيل.

١- اقتل جميع الذكور في المدن البعيدة عن أرض الميعاد (تنثية ١٨/٢٠)، الآن اقتل كل ذكر بين الصغار (الخروج إصحاح ١٧-١٤)، لا تلمس سلامهم ولا خيرهم كل أيامك إلى الأبد (تنثية ٢٣-٦)، احترس من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التي تحت يدك (خروج ٣٤/١٥)، إياك قد اختار

الرب إلهك، لتكون شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض (تثنية ٦ / ٧) إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولاً فضرراً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة (تثنية ١٢ / ١٣) واعدك الرب أن تكون له شعباً خاصاً وأن يجعلك مستعالياً على جميع القبائل. الرب قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته.

هذه نماذج قليلة من الخطاب الديني في إسرائيل، فأين أميركا من هذه النصوص، أليست هذه النصوص تمثل برنامج عمل لسياسة إسرائيل الآن مع فلسطين وماذا نجد في التلمود من العقيدة العنصرية التي تدعو إلى نبذ الآخر وقتله وسلبه، اقرأ معي لتحكم أي الخطابين ينبغي تغييره الخطاب الإسلامي أم الخطاب الإسرائيلي؟

١- إذا ضرب (أمي) إسرائيليا؟ فإن الأمي يستحق الموت ولو لم يخلق اليهودي لامتحت البركة من الأرض.

٢- إن النطفة المخلوق منها غير اليهودي نطفة حصان، يصرح لليهودي أن يطعم الكلب في الأعياد ولا يطعم الأمي.

٣- إذا رد اليهودي مال الأمي الذي فقده فإن الله لا يغفر له ذنبه، يذنب اليهودي ذنبا لا يغفر إذا رد مال الأمي.

٤- إذا سرق اليهودي مال غيره الآدمي نال بركة الرب.

٥- كل مكان تدوسه أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان - من النهر (الفرات) إلى البحر الغربي يكون لكم لا يقف إنسان في وجوهكم.

٦- انظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا؛ لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيتها لك ولنسلك إلى الأبد.

٧- إن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا في أعينكم ومناخس في جنوبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها.

٨- أمرهم التوراة بحرق الأخضر واليابس وإبادة كل حي وقتل الذكور وسي النساء (تثنية ١٢ - ١ - ٧).

هذه نماذج - وغيرها كثير - مما تخاطبنا به إسرائيل عملا لا قولاً. منذ قرون من الزمن أين أمريكا من تعديل الخطاب الديني

في إسرائيل؟ هل يجرؤ واحد من قادة أمريكا أن يطالبوا إسرائيل بتعديل مناهجهم الدراسية التي يترى عليها الناشئة وسط هذا الزخم من الفكر والعقائد اللا إنسانية أم يخافون الوقوع تحت طائلة المعاداة للسامية؟ لماذا تغمض أمريكا أعينها عن هذا اللون من الفكر العقدي الذي ما نزل به وحي ولا بشر به موسى عليه السلام وتطالب المسلمين بتعديل مناهجهم الدينية.

إن أساس الخطاب الإسلامي في حوار مع الآخر قائم على القاعدة القرآنية ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

وفي السنة النبوية : « كلكم لأدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود، الناس سواسية كأسنان المشط » ومبدأ المساواة هو مركزية الخطاب الديني في الإسلام. فأبي الخطابين يجب أن يكون ديناً للإنسانية، وأيهما ينبغي تعديله ؟

(١) سورة الحجرات : [١٣].

ولا ينبغي أن يفهم أحد أننا هنا نقارن بين عقيدتين أو دينين -حاشا لله ومعاذ الله أن نكون كذلك - ولكن الذي ألفت النظر إليه أن منطق القوة قد تسيد ليعلو على قوة المنطق ليصور باطل الآخر حقا يجب اعتقاده ويصور حق المسلمين باطلا يجب تعديله أو تبديده ومن المؤسف أن كثيرا من الكتاب قد شهروا أقلامهم ضد الخطاب الديني وحملوه أوزار الواقع وما يحمله من خطايا أبنائه وأصبح نوبا لكل ذي هوى يشرع فيه نابه ومخلاه.

ومرة أخرى أكرر لست ضد تحديد الخطاب الديني، بل قد نادينا وما زلنا ننادي به، لكن أن تسن الرماح وتشرع الأسنة في وجه الخطاب الديني ويحمله البعض أوزارنا فهذا مجافاة للحقيقة وهروبا من علاج المشكلات التي نعيشها. بمنهج علمي يكشف عن أسبابها الحقيقية وجذورها الضاربة في أعماق المجتمع ليصح العلاج في النهاية.

فما دور الخطاب الديني في وجود الأزمات المتعددة التي يعاني منها المجتمع الإسلامي كله حتى نشن ضده هذه الحملة القاسية.

هل الخطاب الديني هو الذي خلق الأزمة الاقتصادية - أم هو سبب الأزمات المعاصرة في واقع الأمة ؟

هل الخطاب الديني هو السبب في نهب الأموال من البنوك والهروب بها، هل هو سبب التخلف المزري في مناهجها الدراسية؟ ! هل هو سبب الإفساد السياسي والاجتماعي في العالم الإسلامي هل هو سبب الهزائم والنكسات التي تعيشها الأمة منذ ما يقرب من قرنين من الزمان؟ ما علاقة الخطاب الديني بأزمات الواقع في الأمة حتى نكون منصفين، إننا نعيب الخطاب الديني ونحمله أوزارنا في حين أن العيب فينا نحن إننا كما قال الشاعر قديما :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

إننا في حاجة إلى شجاعة وقوة لمواجهة أنفسنا بهذه الحقيقة رغم قسوتها على النفس، لأن واقعنا الثقافي والاجتماعي خير شاهد على هذه الحقيقة فما بالنا نهرب منها ونحمل الخطاب الديني أوزارها.

أليس فينا ومنا من ينادي باختزال المواد الدينية من مؤسساتنا التعليمية أو التخلص منها كلها .

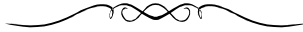
أليس فينا ومنا من ينادي بإلغاء النص الدستوري على أن مصر دولة إسلامية وأن دين الدولة هو الإسلام ؟

أليس فينا ومنا من يكتب صراحة عن تاريخية الإسلام
وتاريخية القرآن وأحكامه فهل هذا هو التجديد المطلوب الذي
يدندن البعض حوله مبشرين بما تريده أمريكا في المنطقة !!؟

نعم ... نحن نادينا وننادي بتجديد الخطاب الدعوى
ليناسب لغة العصر، وليضع المستمع في مواجهة مشكلاته المعاصرة
بحلول إسلامية في ضوء قواعد الدين وأصوله وليس الانعتاق أو
الانفلات من الضوابط الدينية تحت هذه المسميات التي تشبه وضع
السم في إناء العسل.

وما لم نصدق مع أنفسنا ومجتمعنا وواقعنا في تشخيص
أمراضه وعلاجها بالمنهج العلمي - لا الانفعالي - فإننا بذلك لم
نؤد حق الوطن علينا.

وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله
عليه توكلت وإليه أنيب.



من معالم المنهج التربوي عند الإمام الغزالي



يعتبر أبو حامد الغزالي من كبار المفكرين الذين اهتموا بالأخلاق ودراساتها على نحو منهجي وصوفي يمزج فيه بين العلم والعمل، وقد اختلط عنده الدرس الأخلاقي بالدرس التربوي العملي بدراسة النفس وأحوالها، وجاء كتابه العظيم "إحياء علوم الدين" موسوعة في الدراسات الأخلاقية التربوية على سواء، حيث جمع فيه آراءه التي أفرد لها مصنفات صغيرة في شكل رسائل أو أجوبة على أسئلة، وجهها إليه بعض مريديه أو اتخذها منهجاً له؛ لي طرح آراء إجابة على سؤال يتصل بموضوعه التربوي.

وإذا أضفنا إلى كتاب إحياء علوم الدين مصدراً مهماً اعتمد

عليه الغزالي وأفاد منه كثيرا في كتابه الإحياء وهو كتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكي من كبار أئمة التصوف نكون بذلك قد وضعنا أمام أعيننا أهم كتابين في الدرس الأخلاقي عند الصوفية، ولعل العنوان الذي اختاره كل من الغزالي والمكي لكتابه يحمل دلالة قوية في بيان المعنى المقصود لكل منهما من تأليف كتابه. فالغزالي وسم كتابه "إحياء علوم الدين" وصرح في أول الكتاب أنه يشكو من انصراف الخلق عن الاهتمام بالجوهر والمضمون إلى الاهتمام بالشكل والمظهر. خاصة في السلوك وممارسة الشعائر الدينية والطقوس، وأن البحث عن المعنى والمضمون قد ضاعت معالم الاهتمام به حيث لم ينشغل به أحد، وتحولت عبادات الناس وممارساتهم للطقوس الدينية أعمالاً مظهرية يخلو من الإحساس القلبي والشعور الوجداني، وبالتالي لم يظهر أثرها في حياة الناس محبة وتراحما وتواضعا ومودة بين الناس، فوضع هذا الكتاب، ليحيي به هذه المعاني الدينية في قلوب الناس، وليلفت نظر الناس إلى أن أهمية تطهير الباطن أكبر وأهم من الاهتمام بتطهير الظاهر، وأن صحة القلب من أمراض النفاق والرياء و... و... أهم من صحة البدن؛ ولذلك وسم كتابه "إحياء علوم الدين"؛ ليربط بين النظر والعمل، بين الدين والأخلاق.

إن هذا السفر العظيم يعتبر ثورة روحية في وجه أصحاب الطقوس والشعائر الجوفاء التي لا تعبر عن حياة القلب وامتلائه بمعاني الإيمان بقدر ما تعبر عن سلوك مظهري لا يتجاوز أثره موقع أقدام صاحبه، ولذلك نجد الغزالي يصرخ بصوت عال في وجوه المريدين أن يقترن السلوك المظهري وعمل الجوارح بحياة القلب ويقين الاعتقاد، ليكون القلب المؤمن والعقيدة الحية هي التي تحرك الجوارح حبا في الالتزام بالأوامر والنواهي؛ وليس نفاقا للمجتمع أو كسبا للشهرة، ولذلك كان اختيار هذا الاسم المعبر عن أهداف الغزالي ومقاصده (إحياء علوم الدين).

وكذلك فعل أبو طالب المكي، حيث وسم كتابه العظيم "قوت القلوب" ونبه فيه أن قوت القلوب أهم وأولى بالاهتمام من قوت البدن وأن عافية القلب وصلاحه سوف تنضج على الجوارح سلوكا أخلاقيا؛ لأن صلاح الجسد مرتبط بصلاح القلب كما قال الرسول ﷺ: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" وقوت القلوب التي أشار إليها المكي في كتابه هي المحامد الأخلاقية التي نبه إليها الشرع وجعلها أمانة للسيرة الحسنة. من الإخلاص. التوكل، الصبر، المراقبة، المحاسبة، الذكر.. الخ.

وفي هذين السفرين العظيمين نجد المنهج التربوي والأخلاقي معاً، وفي هذين الكتابين نجد الدراسة الأخلاقية ممزوجة بالروح الدينية وإن شئت فقل نجد الأوامر الدينية ممزوجة بالفضائل الأخلاقية إعلاناً لقوة الترابط بين المعنى الديني والمعنى الأخلاقي الذي عبر عنها الرسول ﷺ في قوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" لقد ظهرت الدراسات الأخلاقية عند الغزالي تحت أسماء متعددة تنزع في معظمها من زعاً صوفياً، لأنه قد اهتمدى في نهاية رحلته العلمية إلى أن الطريق الصوفي هو أقوم الطرق وأنفعها لمن أراد الوصول إلى الحقيقة من غير جمجمة ولا مدهنة ولا مراعاة لجوانب الخلق، ولذلك جاءت آراؤه الأخلاقية تحت أسماء ومصطلحات أقرب إلى التصوف منها إلى علم الأخلاق مثل: طريق الآخرة، علم المكاشفة، علم صفات الخلق، أخلاق الأبرار، أسرار المعاملات الدينية، علم المراقبة، المحاسبة كل هذه المصطلحات أو غيرها كثير عند الغزالي، وإن كانت هذه المصطلحات تنتمي إلى حقل الدراسات الصوفية إلا أنها في حقيقتها لها دلالتها الأخلاقية عند أبي حامد الغزالي، ولذلك نجده يتحدث كثيراً عن النفس والخلق وأحوال النفس وعجائب القلب وعلاقته بالجوارح وجنود النفوس والحواس وعلاقتها بالقلب، وأثر ذلك كله في قيمة السلوك الإنساني وتحقيق المعنى الأخلاقي في السلوك.

يرى الغزالي أن علم الأخلاق علم معياري عملي وأن أي علم لا ينتج عملاً يعتبر مضيعة للوقت والجهد معاً، ولذلك وجب أن يقتصر النظر الأخلاقي بالسلوك العملي ولا ينفصل عنه. وقد عرف الغزالي علم الأخلاق في كتابه إحياء علوم الدين بأنه "هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، ومن غير حاجة إلى فكر أو روية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً" وعرف الأخلاق في مواضع أخرى من كتبه، فقال في كتابه ميزان العمل بـ: أن الأخلاق إصلاح القوى الثلاث قوة التفكير، وقوة الشهوة، وقوة الغضب.

كما عرف الأخلاق في مكان آخر من الكتاب نفسه بأنها: إزالة جميع العادات التي نبه الشرع إلى تجنبها وبغضها والتعود على العادات التي حسنها الشرع ورغب فيها، وهنا نجد الغزالي يوحّد بين الأمر الديني والمعنى الأخلاقي فتكون المعاني الأخلاقية هي التي حسنها الشرع فقط اتساقاً مع موقفه الأشعري.

ولا تعارض عندي بين كل هذه التعريفات لأن القصد

والغاية منها واحدة، وهي الحرص على تقويم السلوك ووضع ضوابطه سواء كانت هذه الضوابط مصدرها الشرع والعقل معا أو الشرع فقط حيث لا تعارض بينهما عند الغزالي.

ومن اللافت للنظر هنا أن الغزالي ينبه إلى أن الخلق الذي يتصف به الإنسان ليس هو الفعل الصادر عنه، وإنما هو الهيئة النفسية والحالة القلبية التي يصدر عنها الفعل، فإن صفة الخلق لا تطلق على السلوك، وإنما تطلق على الحالة النفسية التي يقع السلوك تبعاً لها. فرب إنسان غير كريم ولا معطاء، لكنه يبذل المال ليقال إنه كريم أو يبذله رشوة، فهذا السلوك وإن كان يدل على الكرم في مظهره إلا أن الهيئة النفسية التي صدر عنها الفعل ليست محبة الكرم، بل هي الرشوة حبا في قضاء المصلحة مثلاً، ولذلك لا يسمى هذا الفعل كرماً، وكم من شخص خلقه البذل والعطاء، ولكنه لا يملك ما يبذله فهذا لا يصح أن يسمى بخيلاً.

الاعتدال بين القوى الثلاث:

ويستعير الغزالي من الفلسفة الأفلاطونية فكرة الاعتدال بين قوى النفس الثلاثة قوى النفس الغضبية، قوى النفس الشهوانية وقوى النفس العاقلة، والاعتدال في استعمال هذه القوى الثلاث يكون بحسن توزيعها

فيما خلقت لأجله، فالقوى الغضبية يتحقق الاعتدال في توظيفها بحيث لا يكون صاحبها متهوراً، ولا جباناً، لأن وظيفتها تحقيق ملكة الشجاعة، والشجاعة وسط بين التهور والجبن، فإذا أفرط في استعمال القوى الغضبية صار متهوراً، وإذا فرط في استعمالها وأهملها صار جباناً، وكلاهما مذموم (الجبن والتهور).

وكذلك الإفراط أو التفريط في استعمال القوى الشهوانية كلاهما مذموم، والحمود هو توظيفها لتحقيق ما خلقت لأجله وهو حفظ النسل، ومن هنا شرع الزواج لإشباع حاجة النفس بمنهج شرعي يحفظ العفة ويصون المروءة.

وفضيلة القوى العاقلة تتحقق بالحكمة التي ينبغي أن يكون عليها العقلاء، وأخيراً لا بد أن تسيطر القوى العاقلة على القوتين الأخيرتين (الغضبية والشهوانية) حتى يكون الإنسان معتدلاً في سلوكه، لأنه إذا سيطرت القوى الغضبية صار الإنسان إلى السباع والوحوش أقرب، وإذا سيطرت القوى الشهوانية صار إلى الحيوان أقرب، أما إذا سيطرت القوى العاقلة كان حكيماً وإلى الأنبياء أقرب.

يقول الغزالي: فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعضها فهو حسن

الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة، وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة، وحسن القوة الشهوانية واعتدالها يعبر عنه بالعفة، فإن مالت قوة الغضب إلى طرف النقصان تسمى جنباً وخوراً، وإن مالت قوة الشهوة إلى الزيادة تسمى شرها، وإن مالت إلى النقصان تسمى جموداً، والمحمود هو التوسط والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرف زيادة ونقصان بل له ضد واحد يقابله هو الجور، وأما الحكمة فيسمى إفراطها في الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً، ويسمى تفريطها بلها، والتوسط هو الذي يختص باسم الحكمة، ويخلص الغزالي من ذلك إلى القول بأن أمهات الفضائل أربعة: الحكمة والشجاعة، والعفة، والعدل، وعرف الحكمة بأنها حالة للنفس بما تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية.

أما العدل فهو حالة نفسية أو هو قوة في النفس بما يسوس الإنسان القوى الشهوانية والقوى الغضبية ويضبطهما بضوابط الحكمة حتى يصوبهما من الإفراط والتفريط.

أما الشجاعة فقد عرفها بأنها ملكة في النفس تجعل القوة الغضبية متقادة لمنطق الحكمة في إقدامها على الفعل أو إحجامها عنه.

ويعني بالعفة تأدب القوة الشهوانية بآداب الشرع والعقل معاً، ومن اعتدلت عنده هذه الملكات الأربع صدرت عنه الأفعال كلها على هيئة أخلاقية محمودة في العقل مرضية في الشرع.

وقد سبق إلى القول بهذه الفضائل الأربع كل من الفارابي والكندي وابن سينا، لكن على أساس أنها ملكات عقلية وقوى نفسية معيار الاعتدال فيها هو العقل فقط، والوسطية التي تكون بين طرفيها هي وسطية عقلية، لكن الغزالي أضاف إلى ذلك شرطاً مهماً جداً جمع فيه بين وسطية العقل ونور الشرع حين جعل الشرع حاكماً في القول بجواز الفعل أو عدم جوازه، فلا بد من أن يكون الفعل مما أمر به الشرع حتى يكون محموداً في العقل، ليجمع في ذلك بين نور الشرع ونور العقل معاً. تأكيداً على أن الأوامر الشرعية تحمل في مضمونها المعاني الأخلاقية.

تعديل السلوك عند الغزالي:

مزج الغزالي فكرة الأخلاق بنظريته في التربية فجعل سلوك الإنسان قابلاً للتعديل والتغيير من سيء إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، ورفض القول بأن أخلاق الإنسان خاضعة للطبيعة والمزاج الذي لا يقبل التعديل، خاصة الذين جعلوا الخلق صورة الباطن

كما أن الخلق صورة الظاهر، وكما أن الخلق الظاهري لا يتغير فكذلك الخلق الباطن لا يتغير، وأن أي محاولة في تغيير خلق الإنسان سوف يكون مصيرها الفشل.

وقد أشار الغزالي إلى هذه القضية في العديد من مؤلفاته، لكن زادها شرحاً وتفصيلاً في كتابه "الإحياء"، حيث صرح بأن كل كائن حي يمكن تعديل سلوكه وتقويم خلقه، حتى الحيوان نفسه فإنه قابل للتعديل والتغيير في سلوكه. فكم من حيوان قد أصبح مستأنساً بعد أن كان متوحشاً، وذلك بالترويض والتدريب وكثرة الممارسة، وليس المقصود من تعديل السلوك عنده استئصال شأفة الأخلاق الرديئة كلية أو اقتلاعها من النفس، وإنما المقصود هو الترويض لها لتحصل منها على فائدها وتنتقي شرها، فإننا لو قضينا على القوى الشهوانية بالكلية لفاتت شهوة الطعام، وهلك الإنسان، وفاتت شهوة الجماع وهلك النسل، وقد ظن ذلك طائفة، حيث قالوا إن المجاهدة تقضي على هذه الشهوات بالكلية.

يقول الغزالي: وهيئات لهم ذلك فإن الشهوة خلقت لفائدة ضرورية لا تستقيم الحياة بدونها، لأن الله خلقها لحكمة جليلة ولأداء وظيفة جليلة وبدونها لا تستقيم الحياة، والمطلوب ترويضها بحسن توظيفها.

خطوات تقويم السلوك عند الغزالي:

وأول خطوة يرشد إليها الغزالي في تقويم السلوك وتعديله أن يتعرف الإنسان على عيوب نفسه ويعترف بها، وهذا أمر يصعب أن تتحقق منه أو تعترف به، ولذلك أشار الغزالي إلى أمور يسترشد بها الإنسان إذا أراد أن يصلح نفسه.

الأول: أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس خبير بخباياها، عالم بأسرارها يتعلم منه ويأخذ عنه ويسترشد بنصائحه وإشاراته في مجاهدة نفسه وكيفية ترويضها، لأن الأمر في ذلك يحتاج إلى معلم ثقة وشيخ قدوة ومجالسة الصالحين عبادة، وخاصة مجالسة أهل ذكر الله الذين خلصهم الله لنفسه واصطفاهم ونقاهاهم من شرور أنفسهم، فإن في مجالستهم إفاضة لعلومهم وخلقهم على مريدتهم.

الثاني: ألا يصادق إلا صدوقاً متديناً شجاعاً في قول الحق فيتخذ منه رقيباً على نفسه يرى منه عيوبه لأن المؤمن مرآة أخيه. فيلاحظ أحواله وأقواله وينبه إلى ما يراه من عيوب ومساوئ.

الثالث: أن يستفيد من ذكر عيوبه على ألسنة أعدائه فإن العادة جرت على أن العدو مهتم بالبحث عن العيوب والتحدث بها، وربما التهويل من شأنها والمبالغة فيها، فعلى المرء أن يجعل ذلك مرآة ينظر فيها إلى ما يذكره العدو، فما كان صحيحاً حاول أن يتخلص منه، وما كان خطأ احتسبه عند الله.

رابعاً: أن يخالط الصالحين من الناس فما رآه مذموماً على ألسنتهم اتهم نفسه به لأن الطباع متقاربة ويحاول أن يحاسب نفسه للتخلص من هذه العيوب.

وإن صدق المرء في ذلك فإنه يكون قد بدأ الطريق في إصلاح ذات البين، فيحظى بالجوهر الإلهي، فيأخذ الله بيده إلى شاطئ الأمان ويرقى في سلم الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِيمَا لَنَهَدِيهِمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت ٦٩].

وينبه الغزالي إلى خطورة مخالطة الأشرار أو مصادقتهم فإن عدوى السوء أسرع إلى النفس وأقوى في متابعة الهوى، كما قال الشاعر:

واحذر معاشرة الديء فإنها تعدي كما يعدي السليم

وأكثر ما يكون ذلك خطرا في سن الصبا وعمر الطفولة، فإن العدو السيئة تكون أسرع من النار في الهشيم، ولذلك يحذر الغزالي من ذلك وينبههم إلى حسن تربية الطفل باختيار أصدقائه وجلسائه، وأفرد لذلك بابا مستقلا في رياضة الصبيان في أول نشأتهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم، وقد لخص منهجه في تربية الطفل وتحسين خلقه، فبين ما يجب على الوالد نحو ولده من رعاية فيما يأتي:

- تأديبه وتعويده على محاسن الأخلاق وحفظه من مخالطة قرناء السوء.
- أن لا يحبب إليه الزينة والرفاهية، لئلا يتعود على مداخل هوى النفس فيعسر تقويمه، وهذا أسلوب وقائي للعلاج.
- أن يتعود في تناول الطعام أن يأكل بيمينه ومما يليه وأن يبدأ باسم الله.
- أن يتعود على اللباس المحتشم.
- أن يأخذه بأسلوب الثواب والعقاب والمدح أمام الناس، وألا يكون عقابه على كل زلة أو خطأ، بل الأفضل أن يتغافل

عن بعض الأمور، خاصة إذا خجل الطفل منها وتستتر وأخفاها عنك فلا تفاجئه بها، وألا يكون العقاب علنا أمام قرنائته، حتى لا تزيد جرأة الطفل، وأن يكون العقاب قليلا مناسبا للفعل.

• تعويده على الإعطاء لا الأخذ، ومنعه من الافتخار على قرنائته بما يملك.

• تعويده على الإقلال من الكلام إلا الحاجة لأن كثرة الكلام توقع في الخطأ.

• تعويده على الصبر، وتخويفه السرقة، وأكل الحرام.

• إحياء حاسة الرقابة الذاتية، بحيث يكون هو رقيبا بنفسه على نفسه، حتى تبعث فيه الثقة وقوة الشخصية.

وهذه النصائح التربوية الرفيعة قد جسدها الغزالي في رسالة عالية القدر تكتب بحروف من ذهب نلفت إليها نظر المرين، ليشغلوا أنفسهم بها منهجا وأسلوبا راقيا في تربية الأبناء وهي رسالة "أيها الولد".

مناسك الحج وفلسفة الإسلام في رفع الحرج



إن الله سبحانه وتعالى فرض على المؤمنين شعيرة الحج وجعلها الركن الخامس من أركان الإسلام؛ ليكتمل بها بناء العقيدة الإسلامية، وجعل هذه الفرائض كلها معلقة بقاعدة أساسية يتوقف عليها إلزام المؤمن شرعا بتنفيذها والتزامه بها أمام الله وأمام نفسه وهي قاعدة الاستطاعة قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَهَا﴾^(٢).

ويعلم أهل الذكر في ذلك أن التكاليف الشرعية كلها على مستوياتها المختلفة من الواجب والسنة والمندوب معلقة بالاستطاعة ورفع الحرج، ومن جانب آخر فإن أوامر الله ونواهيه التكليفية تدور

(١) سورة البقرة: آية [٢٨٦].

(٢) سورة الطلاق: آية [٧].

كلها حول تحقيق مصالح الإنسان دينا ودنيا، ودرء المفسد ودفع الضرر عنه في دينه ودنياه، وكلما كانت المصلحة أدخل في باب الضروريات كان الحكم الشرعي بها ألزم للإنسان، ولعل من هنا كان تفاوت الأحكام الشرعية بين الفرض العيني والكفائي والسنة والمندوب والحرام والمكروه، فإن تقسيم الأحكام إلى هذه المستويات ليس تقسيما عشوائيا، وإنما هو تقسيم يتعلق بتحقيق المصالح ومدى اعتبارها في الضروريات الإنسانية، ودرء المفسد ومدى اعتبارها في باب دفع الضرر المحقق أو المظنون، ومن هنا كانت الأحكام الشرعية تتفاوت درجاتها بحسب تعلقها بحياة الإنسان، وتحقيق المقاصد الشرعية التي نص عليها علماء الأصول وهي حفظ النفس والعقل والمال والدين والعرض. وكلها تدور حول تحقيق المصالح ودرء المفسد ودفع الضرر، ومن المعلوم في كتب الأصول أن الوسائل التي يتحصل بها تحقيق هذه الأحكام الشرعية تأخذ حكمها أيضا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، فإن الوسائل تأخذ أحكام المقاصد والغايات في باب الواجب، وفي باب الحرام والمكروه، ولذلك قيل إن الأمور بمقاصدها، فإذا كان ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فكذلك كل ما أدى إلى الحرام فهو حرام.

من هنا نستطيع القول إن كل أوامر الشرع تقصد إلى تحقيق مصلحة الإنسان، وكل نواهي الشرع تدور حول درء المفساد ودفع الضرر عنه، وقد يغيب هذا المعنى عن ذهن المشتغلين بالفتوى، فيقفون عند حد ظواهر النص دون فقه لمعناه ودون فقه لمقاصد الشريعة من الأمر والنهي، ودون فقه لترتيب الأحكام الشرعية والأخذ بالأوليات عند تعارضها هذه أمور مقررة شرعا في كتب الأصول وفي آيات الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله علم ذلك من علمه وجهل ذلك من جهله، وفلسفة الإسلام في دفع الحرج عن النفس البشرية هي مبدأ عام شامل لكل التكاليف الشرعية بأحكامها المختلفة قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١). وقال ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فلن يشاد الدين أحد إلا غلبه»، وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وكثيرا ما كان يقول ﷺ لأصحابه: «يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا» وكان منهجه ﷺ في تطبيق هذه القاعدة (رفع الحرج) عاما وشاملا لكل الفرائض الشرعية.

(١) سورة الحج: آية [٧٨].

فالصلاة وهي عماد الدين من عجز عن الإتيان بها واقفا شرع له ﷺ أن يأتي بها قاعدا أو مضطجعا أو يجري أركان الصلاة على قلبه.

والزكاة لا تجب إلا عند بلوغ نصابها وبشروطها وفريضة الصيام، شرع بجانبها، الكفارة والقضاء فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر، وعلى الذين يطيقونه فدية، فتلاحظ معي أيها القارئ الكريم أن هذه الفرائض كلها تدور مع الاستطاعة وجوداً وعدمًا وقصر الصلاة في السفر وجمع الصلاة عند الحاجة المعتبرة شرعا، كل ذلك دليل على أن فلسفة الإسلام في رفع الحرج عن النفس البشرية مبدأ عام وشامل في تطبيق الإسلام لهذه الفرائض الشرعية، وهذا منهج في تربية النفس وحسن ترويضها على تحمل المشاق في تنفيذ هذه الأوامر واستيعاب الأحكام ومقاصدها على نحو من التدرج الذي يرغب ولا ينفر ويحقق معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ واقتداء بقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا».

هذه مقدمة أراها ضرورية لتبين منها روح الإسلام في تطبيق أحكامه وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، فهي ليست أحكاما صماء منعزلة عن واقع حياة الإنسان وظروفه الحياتية، بل هي

تدور في تطبيقها مع ظروف الإنسان وواقع حياته واستطاعته كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(١).

إذا انتقلنا من هذه المقدمات إلى فريضة الحج ومناسكها وما يتعلق بها من أحكام متفاوتة بين الواجب والسنة والمندوب، وبين ما لا يتم الحج إلا به كالوقوف بعرفة، فمن فاته عرفة فقد فاته الحج، وما يجوز فيه الكفارة وينوب عنه الفداء، وقارنا بين موقف المسلمين وسلوكهم في فريضة الحج، ومقاصد الشريعة وما يحيط بها من قواعد رفع الحرج ودفع الضرر نجد أن سلوك كثير من الحجاج في واد ومقاصد الشريعة وغاياتها في واد آخر، وسبب ذلك من وجهة نظرنا يرجع إلى موقف الذين يتصدون لفتوى المسلمين ويقفون بهم عند ظاهر النص دون فقه لمعناه ودون فقه لواقع المسلمين في مناسك الحج.

إن فريضة الحج هي الركن الوحيد الذي فرضه الإسلام مقرونا بالاستطاعة نصا دون بقية فرائض الإسلام. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢). فجعل القرآن الكريم الوجوب الشرعي معلقا بالاستطاعة، والاستطاعة هنا

(١) سورة التغابن: آية [١٦].

(٢) سورة آل عمران: آية [٩٧].

كلمة عامة تشمل الاستطاعة المالية والبدنية، وتحقيق الأمن والأمان للنفس الإنسانية من حين خروج الحاج من بيته قاصدا للحج إلى حين عودته إلى بيته، فإذا لم تكن الاستطاعة متوفرة سقطت الفريضة، ومبدأ الاستطاعة اعتبره الشارع في كل مناسك الحج، فإذا كانت الاستطاعة موجودة مع نسك فقد وجب أدائه وإذا لم تتوفر الاستطاعة في نسك آخر سقط أدائه ويجزئ عنه الفدو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١). فمبدأ الاستطاعة عام وشامل لكل مناسك الحج كما سبق.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢). تساءل الصحابة هل في كل عام نَحْجُ يا رسول الله؟ فقال ﷺ: « لا. ولو قلت نعم لوجبت »، ولا شك أن سؤال الصحابة كان مصدره الحرص التام على الالتزام والتنفيذ الكامل لأوامر الله ورسوله في هذه الفريضة، ولا شك أيضا أن إجابة الرسول ﷺ كانت مشمولة بمبدأ رفع الحرج تحقيقا لمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ

(١) سورة البقرة : آية [٢٨٦].

(٢) سورة آل عمران: آية [٩٧].

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ ﴿٧٨﴾^(١). ولو أخذنا الآية على ظاهرها لأدى ذلك إلى القول بالوجوب كلما توفرت الاستطاعة، ولكن الرسول ﷺ قد راعى في إجابته مبدأ رفع الحرج فقال: لا، وجعل هذه الفريضة واجبة في العمر مرة واحدة إذا تحققت الاستطاعة، وفي هذا من التيسير على المسلمين ما فيه.

ولو تأملنا واقع المسلمين وسلوكهم في فريضة الحج سوف نجد أن كثيرا من سلوكيات الحجيج تتنافى مع الروح العامة لمقاصد الإسلام من هذه الفريضة، كما تتنافى أيضا مع هدي الرسول وصحابته، حيث نجد أن بعض المسلمين يلزم نفسه بما لا يلزم شرعا في سلوكه ولا في هديه، فتجد بعض الناس يقترض، وقد يكون هذا الاقتراض ربويا، ليؤدي فريضة الحج وتجد البعض الآخر يبيع ما هو داخل تحت بند الضروريات له ولأولاده، ولا شك أن هذا السلوك يدل على العاطفة الدينية القوية والحرص الشديد على الالتزام، لكنه يدل من جانب آخر على عدم الفهم لمقاصد الشريعة وروحها العامة، ناهيك عما يقع فيه الحجيج أثناء مناسك الحج من تجاوزات تتنافى مع هدي الرسول ﷺ ومع مقاصد الحج،

(١) سورة الحج: آية [٧٨].

إذ من المعلوم أن الرسول ﷺ كان يأخذ في سلوكه بمبدأ التيسير في مناسك الحج، فكان يسأله الصحابة عن الأمر الذي يرون فيه حرجاً، فكان يقول: افعل ولا حرج، وما سئل عن شيء في الحج إلا قال افعل ولا حرج، ولما كان يوم عرفة وقف الرسول ﷺ واشتد حرص الصحابة على الوقوف بنفس المكان الذي وقف فيه الرسول ﷺ اقتداءً وتيمناً. فقال لهم الرسول ﷺ إني وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف، ليبين للصحابة أن الأمر على التيسير والسعة رفعا للحرج ودفعاً للحرج ودفعاً للمشقة.

ولكننا نجد بعض المسلمين يلزم نفسه بأمور لا علاقة لها بنسك الحج وليست مطلوبة منه شرعاً ولا عقلاً وقد يترتب عليها من الضرر والمفسدة ما لا يعلمه إلا الله، فنجد البعض يلزم نفسه بالجلوس في لظى الشمس وقسوة الحر ويترك مكان الظل ظناً منه أن في ذلك ثواباً أعظم ودرجة أرقى ورضى الله أكثر، وتجد الآخر يلزم نفسه بالمبيت على جبل الرحمة واقفاً به طيلة يوم عرفة متحملاً في ذلك مشقة الحر والزحام ظناً منه أن ذلك مجلبة للثواب وتحقيق لرضى الله، أو يظن أن ذلك من مناسك الحج وكما لها، وبعضهم يحتج لذلك بأن الأجر على قدر المشقة، دون تفرقة بين المشقة التي تقتضيها طبيعة النسك ويتطلبها القيام به، والمشقة

الأخرى التي يلزم الحاج نفسه بها، وهي ليست من لوازم النسك ولا من مقتضياته، وإنما هي من باب إلزام ما لا يلزم.

أما المشكلة الكبرى التي تحتاج إلى بذل الجهد من المسؤولين في أقطار العالم الإسلامي، لكي يقوم العلماء في كل قطر بتوعية الحجاج بها وبمقاصد الشريعة منها، وما قد يترتب عليها من مخاطر تتعارض مع هذه المقاصد الشرعية هي نسك رمي الجمرات، وما يكتنفه من مخاطر قد أدت إلى إزهاق أرواح كثيرة في سنوات متتالية بسبب الزحام الشديد والمشقة التي يكابدها الحجاج في أداء هذا النسك "رمي جمرة العقبة" في وقت محدد من زوال الشمس إلى غروبها، وتحديد وقت الرمي بهذه المدة الزمنية القصيرة، كان مناسباً لعصر الرسول ﷺ حيث العدد القليل وفي الوقت متسع لذلك، أما الآن وقد زاد عدد الحجاج على المليونين فإن الأمر يحتاج إلى اجتهاد الفقهاء، يحتاج إلى نوع من الفتوى التي تراعي أداء النسك وتحقيق مصلحة المسلمين في ضوء ما قدمناه من مبدأ رفع الحرج والتيسير، ولا شك أن حفظ النفس مقصد من مقاصد الشريعة بل هو أولها. وحرمة النفس عند الله تعالى أشد من حرمة الكعبة، وفي هذه الحالة ينبغي على المفتين أن يراعوا أولويات الشريعة في الفتوى، فإذا تعارضت سنة مع واجب كان من الأولى

المحافظة على الواجب، وإذا تعارض نسك مع مقصد كلي من مقاصد الشريعة كان الأولى المحافظة على المقاصد الكلية التي هي غاية الأوامر والنواهي، وفلسفة الإسلام في رفع الحرج هي شعار العام الذي ينبغي أن يأخذ المفتون به في سياستهم للحجيج، وأن يراعوا أن تفاوت الأحكام الشرعية بين الواجب والسنة والمندوب راجع في أسبابه إلى تحقيق المصالح ودرء المفاسد وأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وأن الواجب شرعا في حال معين قد يكون محرما في حال آخر وفي ظروف أخرى، والرسول ﷺ قد حذر صحابته من التشدد في الأخذ بالأحكام، فلقد أخبروه أن صحابيا أصابته الجنابة واغتسل في شدة البرد فمات، ولما علم الرسول بذلك غضب غضبا شديدا وقال لهم: « قتلتموه قتلكم الله. هلا سألتهم إذا جهلتم إنما شفاء العي السؤال » وهو يقصد بذلك أنهم لم ينصحوه بالتيمم بدل الاغتسال لشدة البرد لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾^(١). إن مبدأ رفع الحرج في الشريعة الإسلامية عام وشامل، وإن أولويات الأحكام الشرعية اعتبرها الشارع بحسب درجتها في تحقيق المصالح ودرء المفاسد ودفع الضرر. وإذا كان بعض المفتين يرى ضرورة الاقتداء

(١) سورة البقرة: آية [١٩٥].

بالرسول ﷺ في الرمي بعد الزوال فعليه أن يعلم أيضا أن الرسول ﷺ هو الذي قال: « إن نفس المؤمن عند الله أشد حرمة عند الله من حرمة الكعبة »، وأن حفظ النفس مقصد كلي من مقاصد الشريعة الإسلامية وفي مثل هذه الحالات لابد من الأخذ بفقهاء الأولويات، فإن الحفاظ على المقاصد الكلية للشريعة مقدم على غيره من السنن والمندوبات، وإذا علمنا أن تحديد وقت الرمي بهذه المدة الزمنية القصيرة قد يترتب عليه ضرر محقق يؤدي إلى إزهاق أرواح المسلمين فمن الواجب حينئذ اللجوء إلى البدائل المعتبرة شرعا وفلسفة الإسلام في رفع الحرج تفتح الباب للفتوى المنضبطة بروح الشرع ومقاصده، ومن المعلوم أن الوقوف بعرفة هو الركن الوحيد الذي إذا فات الحاج فقد فاتته الفريضة نفسها لقوله ﷺ: « الحج عرفة » فمن فاته الوقوف بعرفة فإنه فاته الحج، ولا يجزئ عن الوقوف بعرفة أي شيء غيره من الهدي أو الصيام، وفي الواجبات والمناسك الأخرى نجد متسعا من الهدي والفداء أو الصيام لما فاته شيء من النسك الأخرى إما لعجزه عنه أو لتقصيره فيه، ونسك الرمي مما يجزئ عنه الفدو المالي عند العجز عن القيام به سواء كان عجزا حقيقيا أو حكما، ويجوز في مثل هذه الضرورة الرمي بعد منتصف الليل (ليلة العيد) إلى منتصف الليلة

التالية أخذاً بمبدأ الضرورات تبيح المحظورات، وفي ذلك تحقيق للنسك ودفع للضرر المحقق ورفع للحرَج عن المسلمين، كما يجوز للمفتي أن يعلن للشيخ العاجز أو المرأة التي لا محرم معها كأن كانت كبيرة أو المريضة، ومن في حكمهم من الذين فقدوا الاستطاعة أن يفدوا ويقدموا دماً، وفي ذلك أيضاً متسع لتحقيق النسك ودفع الضرر، وهذا كله اقتداءً بهديه ﷺ فما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وما سئل عن شيء إلا قال: افعل ولا حرج، إننا بصدد مشكلة تحتاج إلى إعادة النظر في الفتوى التي تحقق مقاصد الشريعة وتدرأ المفسدة عن المسلمين، لقد كلفني جامعة الملك عبد العزيز بمجدة بالإسهام في نشاط مركز أبحاث الحج الذي كان تابعا لهذه الجامعة آنذاك في أوائل الثمانينات، وكان من بين أعمال اللجنة النظر في أمور الحج بصفة عامة وما ينبغي القيام به تيسيرا على المسلمين في أداء هذه الفريضة، وكان حرص المسؤولين واضحا على النهوض بهذه المهمة.

وكان من بين الأمور التي اقترحتها على اللجنة ضرورة التفكير في مصير لحوم الأضحية التي تذبح في منى، حيث لا ينتفع بها المسلمون وترك فترة طويلة من الزمن، حيث يصيبها العفن وهي أموال مهدرة لا ينتفع بها أحد، فلماذا لا يكون هناك مصانع لحفظ هذه اللحوم وتعبئتها وتوزيعها

على فقراء المسلمين في العالم، خاصة إذا علمنا أن المملكة العربية السعودية ليس فيها من الفقراء ما يستوعب هذه الكميات الهائلة من اللحوم، ولا يستفيد منها أحد، وإن الدولة تتكلف أموالاً طائلة في التخلص من هذه اللحوم بالإحراق حفاظاً على البيئة من التلوث، أو تجمع الأموال من أصحابها بطريقة منظمة وتصرف في مصارفها الشرعية كما يقرر ذلك الفقهاء، وارتفعت بعض الأصوات تعارض هذا الاقتراح محتجين بقوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ خُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ الْفَقَوَىٰ مِنْكُمْ﴾^(١). كيف نفعل أمراً لم يفعله الرسول ﷺ هذا ابتداءً في دين الله، إلى هذه الأقوال التي سمعناها من البعض، والتي كان يحدوها الحرص التام على الاقتداء والاتباع لسنة رسول الله ﷺ، ولكن ما إن شرح الله صدور المسؤولين حتى تم تنفيذ هذا الاقتراح وتحققت به المصلحة للمسلمين، وتم به أداء النسك وهذا لا يتعارض أبداً مع هدي الرسول ﷺ ولا مع قاعدة رفع الحرج، إننا في حاجة ماسة في مثل هذه الحالات إلى فهم النصوص وليس حفظها، ونحن في حاجة إلى الأخذ بالأولى عند تعارض الواجبات، وفي شريعتنا الغراء من التيسير على المسلمين ما يسع ذلك كله.

(١) سورة الحج: آية [٣٧].

الإنسان وتجربة الابتلاء



إن المتأمل في كتاب الله تعالى وفي حديث القرآن عن الإنسان ووجوده ومصيره والمتسائل عن الحكمة الإلهية في وجود الإنسان وتحقيق عبوديته لخالقه يجد نفسه في مواجهة مباشرة أمام سؤال لا بد من طرحه: لماذا خلق الله النفس الإنسانية على هذا النحو الذي لو خلاها وصاحبها لتحركت به حركة يلزم عنها الانحراف والمعصية.

وهذا السؤال هو الذي اعترضت به الملائكة على خلافة الإنسان في الأرض واختصاصه بذلك دون بقية الكائنات فقالت: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي

أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾. والله سبحانه قد خلق الإنسان كما أخبر في كتابه ﴿• إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿٢﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٣﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٤﴾﴾، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٥﴾﴾. والعجلة والهلع من لوازم الإنسان، ويلزم عنهما أمور قد يشوبها شيء من الشر، وإنما خلق الإنسان على هذه الحالة ليتحقق من خلقه معنى معين أشار إليه القرآن بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٦﴾﴾. فالآية الكريمة قد جسدت قضية الابتلاء في هذا الخلق العجيب ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ ثم أعقبت الخلق بهذا التعليل الذي يعبر عن حكمة الخلق وغايته ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وعند التأمل في التعبير القرآني الجامع ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يتضح لنا معانٍ جلييلة تضمنها هذا التعبير القرآني لا بد من بيانه لما فيه من تجلية وتوضيح لقضية الابتلاء وأبعادها الغائبة عن عقل الإنسان، فإن لفظ أَمْشَاج جمع على وزن أفعال ومفردة مشيج مثل خليط وأخلط (مشيج وأَمْشَاج) لفظاً ومعنى، والخليط مركب من مجموعة من العناصر وليس

(١) سورة البقرة: آية [٣٠].

(٢) سورة المعارج: الآيات [٢١: ١٩].

(٣) سورة الإسراء: آية [١١].

(٤) سورة الإنسان: آية [٢].

عنصرًا واحدًا. وكذلك لفظ مشيخ، وأمشاج جمع مثل أخلاط، وهو مركب من عنصر أكثر وأكثر مما هو موجود في المفرد خليط ومشيخ، لأن الجميع يتركب من عنصر أكثر مما يتركب منه المفرد.

وهذه العناصر قد اختلط فيها الجانب المادي التراي الذي أكدته القرآن وأشار إليه في أكثر من آية بالجانب الروحي الإلهي الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧١) (٧٢).، فقد امتزج في البنية الإنسانية الجانب المادي والتراي بالنفخة الإلهية (وهي الجانب الروحي في الإنسان)، فتكون من المزج بين هذين الجانبين "الإنسان" ليكون محلا للصراع بين الجانب المادي وأوامره والجانب الروحي وأوامره، وهنا مكمن الداء وسر الابتلاء، وينبغي أن نعلم أن هذا المركب الإنساني ليس مادة وفقط، وليس روحًا فقط كما أنه ليس مادة وروح وكفى، وإنما هو مادة وروح وعناصر جديدة نتجت عن مزج الجانب المادي بالجانب الروحي في الإنسان، وهذه العناصر الجديدة لا سبيل للعقل البشري إلى معرفتها، لأنها ليست خاضعة لمقاييس الحواس لكنها تؤثر في حياة الإنسان إيجاباً

(١) سورة ص: الآيات [٧١: ٧٢].

وسلبًا، يعيش الإنسان أثرها في حياته وقد لا يحسن التعرف عليها ولا البرهنة على وجودها، وهي تمثل المناطق المظلمة في النفس البشرية التي هل محل الإعجاز الإلهي كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۖ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(١). ومما يقرب هذا البناء الإنساني العجيب إلى الفهم، أن تأخذ كوبا وتملأ نصفه ماء، ونصفه ترابًا، وتمزج أحدهما بالآخر فيتكون معك مركب جديد ليس هو الماء وليس هو التراب، لكن فيه من خصائص الماء وفيه من خصائص التراب، وفيه خصائص جديدة نتجت عن مزج الماء بالتراب والأمور كذلك بالنسبة للإنسان، إنه أمشاج ليس مادة خالصة، ولا روحًا خالصة، وليس مادة وروحًا فقط، بل هو مادة وروح وخصائص جديدة نتجت عن مزج أحدهما بالآخر، وهذه هي التسوية الإلهية التي عبر عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾^(٢). والإنسان مطالب بأن يعدل بين هذه الخصائص ومتطلباتها، ليكون إنسان سويًا، فالله قد خلق الإنسان ليتلوه ليعرف كيف يحقق التوازن بين هذه الأوامر والرغبات

(١) سورة الذاريات: الآيات [٢٠: ٢١].

(٢) سورة الحجر: الآية [٢٩].

التي يتصل بعضها بالمادة، ويتصل بعضها الآخر بالروح كما يتصل البعض. ثالثا بالخصائص الجديدة التي نتجت عن مزج الجانب المادي بالجانب الروحي ليتكون منها هذا الكائن العجيب الإنسان، والابتلاء له مستلزمات وخصائص، كما أن له أشكالا ومظاهر، وهو أنواع ودرجات، ولقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة المهمة التي قد تفسر لنا هذا السر الغامض في كثير من آياته وفي مناسبات مختلفة، فهو خلق السماوات والأرض وما بينهما ليبتلّي الإنسان بما فيهما من مظاهر النعمة والترّف، لينظر الإنسان هل يحسن شكر النعمة أم يجحدها. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١).

ثم جعل تعاقب الليل والنهار وبناء الإنسان وتقلب نوعه بين الموت والحياة تحقيقا لمعنى الابتلاء ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٢).

(١) سورة هود: آية [٧].

(٢) سورة الملك: آية [٢].

والله قد وهب الإنسان القدرة التي يستطيع بها أن يفعل الخير
كما يستطيع أن يفعل الشر لیبتلیه بذلك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ^(١).

والقرآن قد بين لنا أن الابتلاء كان - ولا يزال - هدفا
مقصودا من كل ما ينزل بالعبد من ألوان القضاء وأحكامه،
سواء كان للعبد أثر في ذلك أم لا. ولو علم العبد أنه لو خلى
ونفسه وحرمة العون الإلهي، فإنه بلا شك محكوم عليه بالفشل في
تجربة الابتلاء، فيظل مشدود الوثاق بربه ملتجئا إليه طالبا عونه.

وما دامت الغاية من خلق الإنسان هي الابتلاء، فإن الله قد
خلقه على نحو معين يتناسب مع تحقيق الهدف الذي خلق لأجله،
وجعله على أفضل نحو من الوجود المناسب لتحقيق هذا الهدف. فلم
يشأ أن يجعله ملكا لا علاقة له بالمادة، ولم يشأ أن يجعله مادة
خالصة لا روح فيها، بل قضى الله سبحانه وتعالى أن يجعله مزيجا من
العالمين الروحي والمادي، وزاوج بينهما في وجوده الحسي لأن هذا هو
أفضل نحو من الوجود المناسب لتحقيق معنى الابتلاء، وامتزاج المادة

(١) سورة الأنبياء: آية [٢٥].

والروح في الإنسان جعل حياة الإنسان صالحة للابتلاء بما يشاء الله، وكانت حياة الإنسان نوعاً من التفاعل والصراع بين مطالب المادة ومطالب الروح، وقد انعكس أثر هذا الصراع على سلوك الإنسان الفرد وعلى علاقته بالله والناس، في كل هذا يتحقق نوع معين من أنواع الابتلاء، حيث يسعى كل جانب من المادة أو الروح إلى تحقيق سيطرته على اتجاهات الإنسان في سلوكه وعلاقته بغيره، فتكون معاملته مع الناس ومع الله تلبية لمطالب جانب معين منهما حسب قوته في التأثير والغلبة قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً هَآ لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١)، فهل يتجه الإنسان إلى إشباع جانبه المادي أو الروحي، هل يرقى بنفسه أو يتسفل بها، هل يشكر أم يكفر، وتفاوت حياة الناس بين الفقر والغني والصحة والمرض، والرفعة والخنسة يهدف إلى تحقيق معنى الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَآؤُلَآءِ مَن آَلَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ آَلَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّكِرِينَ﴾^(٢). ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ

(١) سورة الكهف: آية [٢].

(٢) سورة الأنعام: آية [٥٣].

الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ [يونس: آية ١٤].

والله سبحانه كان - ولا يزال - قادرا على أن يجعل الناس كلهم أمة واحدة على الإسلام، أو على الصحة والغنى، والجاه والرياسة، ولكن شاء الله أن يجعلهم كذلك أنواعا وفئات تتفاوت فيما بينها بين الفقر والغنى، والصحة والمرض، والعلم والجهل ليحقق فيهم معنى الابتلاء قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: آية ٤٨]، جعلهم كذلك ليبلو بعضهم ببعض، وكما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان ٢٠] وكما قال سبحانه: ﴿لَخَنَّ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخًا وَرَحِمْتُ رَبُّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: آية ٣٢].

بل إن إخباره عن بعض غيوبه ليعلم بذلك من يؤمن بها ويصدق ممن يكفر ويحدد بالله، كان يقصد به تحقيق معنى الابتلاء: قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا

جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا ﴿١﴾، فالله سبحانه وتعالى جعل الإيمان بالغيب وما وراء المادة موضوع الابتلاء. ابتلاء للعقول والأفهام ليميز بين المؤمن منها والمنكر، وكما جعل سبحانه تفاوت البشر في حظوظهم من الدنيا، وتفاوتهم بين الفقر والغنى محلاً للابتلاء جعل سبحانه قضايا الغيب ابتلاء للعقول ليجمع على الإنسان بين ابتلاء البدن وابتلاء العقل، فالراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وكما قال سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ فأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا، وأما المؤمنون فيزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ولذلك كان الإيمان بالغيب والتسليم به أكثر دلائل الإيمان وأظهرها وضوحاً على وجه المؤمن كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾﴾،

(١) سورة المدثر: آية [٣١].

(٢) سورة البقرة: الآيتان [٢، 3].

ولو أخذت أسطر هنا ما جاء في القرآن حول قضية الابتلاء للإنسان بكل ما في الكون من مظاهر الحياة وبجياة الإنسان نفسه لخرجت في ذلك عن حد القصد، ولكن يكفي أن أشير إلى أن القرآن قد لفت أنظارنا في غير موضع وفي غير مناسبة إلى أن الإنسان خلق للابتلاء، وينبغي ألا ينظر إلى معنى الابتلاء نظرة تشاؤمية لأن العكس هو الصحيح، فإن الله ما أجرى على عبده قضاءه إلا ليرفع به درجة أو يحط عنه به سيئة، وليست كل أنواع الابتلاء تكون بالآلام أو الأمراض. بل قد يتلى الله بالصحة كما يتلى بالمرض ويتلى بالغنى كما يتلى بالفقر، ويتلى بالجاه والسلطة كما يتلى بأضدادها، وفي الأثر: إن من عبادي من لا يصلح حاله إلا الغنى، ولو أفقرته لفسد حاله، وإن من عبادي من لا يصلح حاله إلا الفقر، ولو أغنيته لفسد حاله، فالله يعطي كل عبد ما يناسب تجربته في الابتلاء ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (٢).

وينبغي أن يعلم هنا أن الله لا يبتدئ عباده بالابتلاء، وإنما

(١) سورة الفجر: الآيتان [١٥، ١٦].

يبتدئهم بالفضل والإحسان، فالوجود خير من العدم وحفظ الحياة والهداية بالرسول والكتب وحسن الخلقة والصورة، كل ذلك فضل منه ونعمة ولكنه في الوقت نفسه يهب الإنسان هذا العطاء بدون سبب تقدم به العبد بين يدي ربه ويقصد به معنى من معاني الابتلاء ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(١)، فهذا قانون عام يحدد علاقة الله بعباده، وهو سبحانه لا يزيد العبد إلا بما هو خير له وصالح لأمره.

وهذا النوع من القضاء الذي يحدث فيه نوع من المشاركة بفعل الإنسان يكون فعل الإنسان نفسه مقدمة وسببا مهبطا لنزول القضاء الإلهي به، وما جرى به القضاء هو النتيجة التي يسببها فعل الإنسان، فالإنسان الذي يعرض نفسه لأسباب المرض عليه أن ينتظر حلول المرض، والطالب الذي لا يذكر ينبغي ألا يمني نفسه بالنجاح، والأمم التي لا تأخذ بأسباب التقدم والنهضة لابد أن تحصد النتائج تبعية وتخلفا وفقرا، وهكذا تسير سنن الله في كونه باطراد وثبات لا تتخلف النتائج عن أسبابها، فالإنسان هو الذي لا يقدم الأسباب بفعله وسلوكه وسيرته، فإن كانت الأسباب حسنة

(١) سورة إبراهيم: آية [٧].

وخيرة كانت نتائجها كذلك، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وإن كانت الأسباب سيئة وسلبية فمن البلاهة والغفلة أن ينتظر غير ما قدمت يداه.

وكذلك الأمر في مسائل الهداية والضلال، والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، فمن سلك سبيل الهدى والطاعة تفضل الله عليه بعونه ومدده، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)، وكما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢)، ولم نقرأ في القرآن الكريم أن الله تعالى أضل مؤمناً، أو طبع على قلب مهتدي، وإنما أضل الكافر والفاسق وطبع على قلب الكافر والعاصي، وهذا هو العدل الإلهي الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِينَ﴾^(٣)، ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣)، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ

(١) سورة العنكبوت: آية [٦٩].

(٢) سورة المائدة: آية [١٦].

(٣) سورة القلم: آية [٣٥].

﴿جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾^(١)، فمن أعرض عن الهداية لا يستحق أن يحظى بالفضل الإلهي أو يختصه الله به، بل يكون إعراضه عن الهداية سببا مرجحا لمنع الفضل الإلهي عنه، ويكون إعراض العبد عن ربه هو السبب فيما حل به من ألوان القضاء، والله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وقد ظن بعض الناس خطأ أن الله لو جاز أن يختص أحداً من خلقه بفضله دون البعض فقد حاي ذلك المخلوق وظلم الآخرين، لأن العدل الإلهي عندهم يقتضي التسوية بين العباد في كل شيء، وهذا خطأ في فهم أفعال الله في عباده وموقع أفعال العباد من قضاء الله في عباده، ولا شك أن الله قد سوى بين جميع خلقه ابتداء في الهداية العامة حيث وهب جميع عباده العقل وأرسل الرسل وأنزل الكتب إلى جميع عباده ولم يختص بذلك أحداً دون الآخر والاختلاف في عطاء الله لعباده بين الهداية والضلال، والطاعة والمعصية، إنما حصل بين الناس لأن بعضهم فضل الهداية، وبعضهم فضل الغواية، والعقل والمنطق يقرر أن السوية بين هذين النوعين ظلم لأنهما تسوية بين المختلفين، والتسوية في الفضل

(١) سورة ص: آية [٢٨].

والنعمة لا تكون إلا بين متماثلين لاختلافين، والقضاء قد جرى بأن من أعرض عن ذكرى ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ (١)، وجرى أيضا بأن ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ (٢)، والله يقول: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٣)، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (٤)، ولا يصح في منطق العقل أن يماثل الله بين الطائع والعاصي، فلا يماثل بين المختلفين كما لا يفرق بين المتماثلين، والظلم إنما يتصور لو أجب الله العبد على المعصية وحمله عليها كرها، ولكن القضاء إنما سجل اختيار العبد للمعصية حينما شرع في الأخذ بأسبابها، وقد كان في مقدوره ألا يشرع في الأخذ بها وأن يأخذ بأسباب الهداية.

(١) سورة طه: آية [١٢٥].

(٢) سورة مريم: آية [٧٦].

(٣) سورة الصف: آية [٥].

(٤) سورة الليل: الآيتان [٦، ٧].

معنى الحسنه في كتاب الله



لقد استدلل المعتزلة على رأيهم في أن الله لا يقضي المعصية على العبد بقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(١).

وظنوا أن الحسنه والسيئة في الآية المذكورة المراد بها الطاعة والمعصية، فتكون الحسنه من الله خلقا وقضاء والسيئة من العبد خلقا وقضاء، وقالوا: لو قضى الله السيئة على العبد لكان الله شريراً يريد الشر بعباده، والله تعالى منزّه عن ذلك... فوجب ألا يتعلق القضاء إلا بالحسنه فقط. كما احتج الأشاعرة بالآية نفسها على أن الطاعة والمعصية من الله خلقا وإيجادا وليس للعبد أثر في كل ما يأتيه من طاعة أو معية، وقد أخطأ الفريقان في الآية من وجهين:

(١) سورة النساء : الآية [٧٩].

الوجه الأول: أنهم فسروا الحسنة والسيئة في الآية بالطاعة والمعصية، وليس الأمر كذلك. بل المراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب التي تصيب العباد ولا دخل لهم فيها ، ولفظ الحسنة والسيئة قد استعمل القرآن كلا منهما في النعم والمصائب كثيرا قال تعالى : ﴿إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (١) ﴿١٢﴾ ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَبِتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٢) ﴿١٣﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ (٣) ﴿١٤﴾. فلفظ الحسنة والسيئة في كل هذه الآيات يراد به النعم والمصائب التي تنزل بالعباد كالنماء في الزرع والسعة في الرزق والصحة والولد. أو القحط والفقر والمرض. وورد لفظ الحسنة والسيئة في القرآن الكريم يراد به أحيانا الطاعة والمعصية التي تقع من العبد، ويراد به أحيانا أخرى النعم والمصائب التي تقع على العباد من متعلقات القضاء الكوني، وحين يستعملها القرآن

(١) سورة آل عمران: الآية [١٢٠].

(٢) سورة التوبة: الآية [٥٠].

(٣) سورة الأعراف: الآية [١٣١].

للدلالة على الطاعة والمعصية (من أفعال العباد) يستعمل بها لفظ من "جاء بالحسنة"، من كسب سيئة ليدل على أن الفعل واقع من الإنسان بإرادته وحريته، وإذا أراد بها القرآن الدلالة على النعم والمصائب فإنه يستعمل معها لفظ: "ما أصابك من حسنة" و"ما أصابكم من مصيبة" ليدل على أن الفعل واقع على الإنسان وليس واقعا منه لأن الفعل (أصاب) يدل على أن الإنسان محل للفعل، منفعل به وليس فاعلا له ولا مسئولاً عنه بخلاف لفظ (جاء وكسب) التي استعملها القرآن مع الحسنة والسيئة حين أراد بها الطاعة والمعصية لأن الفرق كبير بين المعنيين فلفظ أصاب ويصيب يدل على أن الفعل الواقع على الإنسان من متعلقات القضاء الكوني العام المحيط بالكون وما فيه والذي عبر عنه سلف الأمة بأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وفي ضوء هذا المعنى فهم السلف قوله تعالى: ما أصابك من حسنة فمن الله، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وما أصابكم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فبإذن الله... إلخ، وهذه كلها آيات تدل على متعلقات القضاء الكوني الذي لا يصح الاحتجاج به على المعصية.

ولفظ (جاء وكسب) إذا اقترن بالحسنة والسيئة يدل على أن الحسنة والسيئة واقعة من الإنسان بإرادته وحريته، ولذلك

يسأل عنها يوم القيامة، ولا يجوز استعمال أحد المعنيين مكان الآخر أو الاستدلال بآية مكان أخرى لأن ذلك يؤدي إلى اضطراب في الفهم وخلل في تحديد موقف الإنسان من مسؤوليته عن أفعاله على مستوى الفرد والمجتمع.

وهذا الخلل قد يقع فيه كل من المعتزلة والأشاعرة على سواء حيث استدلل كل منهما على مذهبه بما يخالف معنى الآية في سياق داخل النص، والآية التي يستدل بها الطرفان لفظ الحسنة والسيئة فيها يراد به نزول المطر ونماء الزرع وما جاء على شاكلته من القضاء الكوني الذي يصيب المرء بدون اختياره، ولذلك نجد القرآن قد عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ﴾ و ﴿تُصِيبْكُمْ﴾ ليشعر أن الذي أصاب المرء من ذلك بغير اختياره وهذا يخالف ورود الحسنة والسيئة بمعنى الطاعة والمعصية فإن القرآن قد عبر عنها بالفاظ تدل على الاختيار والإرادة من العبد، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾^(١).

فالحسنات والسيئات هنا هي الطاعة والمعصية من أفعال

(١) سورة الأنعام : الآية [١٦٠].

العباد المتعلقة باختيارهم وإرادتهم، ولذلك كان تعبير القرآن عنها بلفظ (من جاء) الذي يشعر بالاختيار والإرادة.

الوجه الثاني: أن القرآن قد فرق في هذه الآية بين الحسنه والسيئة، فجعل الحسنه من الله والسيئة من العبد، وهذا ينقض ما ذهب إليه الفريقان، فالمعتزلة جعلوا الحسنه والسيئة كلاهما من العبد بدون تفريق بينهما، والأشاعرة جعلوا الحسنه والسيئة كليهما من الله بدون تفريق بينهما، فالآية ليست حجة للمعتزلة ولا للأشاعرة بل هي حجة على الطرفين فيما يذهب إليه.

وسبب نزول الآية يوضح لنا أن الحسنه والسيئة في الآية يراد بهما النعم والمصائب وليس الطاعة والمعصية. فلقد روى أن جماعة من المنافقين نكصوا عن الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ هرباً من لقاء العدو وحذراً من الموت فنزل في حقهم عدة آيات من سورة النساء تكشف موقفهم للرسول وتبين لهم أنهم لن ينفعهم الفرار من الموت أو القتل قال تعالى: ﴿أَيُّمَّا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ

الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾^(١). ثم أخذت الآيات تكشف عن أحوال هؤلاء المنافقين فقد كانوا إذا نزل بهم مطر أنبت زرعهم وأجرى ضرعهم ووسع رزقهم أو حل بهم ما يسر، قالوا: إن هذا من الله، وإذا حلت بهم سنون عجاف، فلا مطر ولا زرع ولا ضرع قالوا هذا من شؤم محمد وشؤم دينه. فنزلت الآيات تقول: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٧٩) فإن ما ينزل بهم من خير أو ضر هو من عند الله وليس من شؤم محمد ولا دين محمد.

ثم أخذت الآية تخاطب الرسول ﷺ باعتباره قائد الركب فإذا كان الحكم يجري عليه بما تنطق به الآية، فإنه يجري على غيره من باب أولى. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، لأن الإنسان هو الذي يتسبب فيما يحل به من ألوان الضر وصنوف الكرب، وإذا كان ما ينزل بالرسول ﷺ من السيئات فمن نفسه فغيره من هؤلاء أولى. وهذا يبين لهم أن الذي حل بهم من سنين عجاف لم يكن ظلما أو عبثا، وإنما كان ذلك ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي

قُلُوبِكُمْ ﴿ ليظهر من صدق الله في إيمانه ممن يعبد الله على حرف، فالآية نزلت في واقعة معينة ليكشف للمنافقين أن ما يصيبهم من النعم والمصائب هي من عند الله وليست من عند محمد، وأن محمدا نفسه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ثم وضحت الآيات بعد ذلك أن الحسنه من الله فضلا وإحسانا وأن السيئة كانت منه عدلا وحسابا، فهي لم تقع منه ابتداء بل كانت عقوبة منه على فعل سابق من العبد كما قال سبحانه ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾^(١).

وإذا كان هذا هو شان الله مع العبد في النعم والمصائب، فإن القرآن قد وضع لنا أن المعصية إذا وقعت من العبد، فليس ذلك إلا من فعل نفسه ولسبب تقدم به العبد يكون مستلزما لها، لأن الإنسان لا يشتغل قلبه بالمعصية إلا إذا كان فارغاً من الاشتغال بالطاعة والهداية، وكون القلب فارغاً من معنى الطاعة والهداية يعد معصية لكنها معصية عدمية يستحق العقوبة عليها لأن فراغ القلب من الاشتغال بالطاعة جعله مهياً للاشتغال بالمعصية، فيجيء فعله المعصية نتيجة لازمة لفراغ قلبه من الاشتغال بالهداية،

(١) انظر تفسير ابن تيمية ١٤ / ١٣٢ - ٢٣٦، رسالة الحسنه والسيئة ٢٠ شفاء العليل لابن القيم ٢٢١ - ٢٢٤. سورة الشورى: الآية [40].

وفي نفس الوقت تكون المعصية عقوبة على تركه الاشتغال بأسباب الهداية فتكون من الجزاء السيئ على العمل السيئ وذلك كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، وكذلك الحسنة فإنها تكون من العبد جزاء وفاقا وهو نعمة الله للعبد ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾^(١)، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾^(٢). فالطاعة من الله والمعصية من العبد، وكلما ازداد العبد تقربا إلى الله يزيده الله من أنواع هذا الجزاء الدنيوي بفعل الطاعة الذي هو مقدمة للجزاء الأخروي بالجنة، وكذلك كلما يزداد المرء بعدا عن الله تزداد له العقوبة من ارتكاب المعاصي ليكون ذلك مقدمة للعقاب الأخروي بالنار. فالجزاء من جنس العمل.

وحين يهمل المرء نفسه فلا يشتغل بما ينفع ويصلح نفسه فإن الجزاء العدل من الله هو الإهمال ﴿فَسُوا اللَّهَ فَنَسْنَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾^(٣). فإن النفس إذا أصبحت خالية من أسباب الهداية لا بد أن تشتغل بأسباب المعاصي، لأنها إذا لم تشتغل بما ينفع فلا بد أن تشتغل بما

(١) سورة مريم: الآية [٧٦].

(٢) سورة المائدة: الآية [١٦].

(٣) سورة الحشر: الآية [١٩].

يضر، وهذا من طبيعة كونها نفسا وعقوبة الله للعبد في الآخرة إنما تكون على فعل السيئات التي ارتكبها في الدنيا، وفعل العبد للسيئات كان عقوبة له في الدنيا على إهماله الأخذ بأسباب الهداية وتركه فعل الواجبات فيكون قد اجتمع على العبد نوعان من العقوبة:

١- نوع وقع منه في الدنيا، وهو ارتكاب المعصية، وهو باختياره وذلك لفراغ قلبه عن الاشتغال بالطاعة.

٢- نوع وقع به في الآخرة وهو عقاب الله له على فعل السيئات، وكلا النوعين إنما وقعا بسبب تركه الاهتداء بما هداه الله به. لأن الله قد هداه فلم يهتد ولهذا كان ﷺ كثيرا ما يتعوذ من شر النفس بقوله: "نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا"^(١).

ويقع المعتزلة في خطأ آخر حين يقولون: لو جاز أن يقضي الله الشر أو المعصية لكان شريراً، لأنه لا شك أن الله خالق كل شيء وكل ما وقع في الأرض فإن الله قد قضاه كونا وإيجادا سواء في ذلك الطاعة والمعصية، الإيمان والكفر. والله تعالى قد خلق الأكل والشرب والمشى في العباد وقدره عليهم، وقضاه قضاء كونيا، ولا يصح أن يقال

(١) ورد الحديث في نص خطبة الوداع لرسول الله ﷺ . انظر ابن حنبل ٥ / ٢٧١ دار المعارف.

أنه تعالى آكل وشارب وماش، لأنه قد فعله الأكل والشرب والمشي فليس يتصف سبحانه بما خلق من عباده بل يتصف بما خلقه هو من أفعال نفسه، وهنا يجب التفرقة بين نوعين من الأفعال التالية:

١- النوع الأول: فعل مخلوق لله، منفصل عنه، قائم بمخلوقاته، وذلك كالأكل والشرب والمشي والطاعة والمعصية وغيرها. فإن هذه الأفعال مخلوقة ومقدرة ومقضية لله، ولا يلزم من خلقه لها اتصافه بها. بل يتصف بها من قامت به ومن فعلها بقدرته واختياره وهو العبد.

٢- النوع الثاني: نفس فعله تعالى القائم به كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة فالأول مفعول له منفصل عنه، والثاني فعل له قائم به والأول يتصف به من وقع منه الفعل وقام به، وليس من قضاءه عليه وقدره له وخلقه والثاني يتصف به من فعله وقام به. فيقال هو المحيي المميت ولا يقال هو الأكل الشارب.

والتفرقة هنا ضرورية بين نفس فعله القائم به ومفعوله القائم بغيره، وعدم التفرقة بين هذين النوعين من الأفعال قد أوقع المعتزلة في لبس حيث ظنوا أن كل ما خلقه الله وقضاه يصح أن يوصف به، وهذا خطأ كبير، لأن الله لا يوصف بأفعال عباده وإن كان قد قضاه عليها وإنما يوصف بفعل نفسه القائم به.

الحسنة من الله والسيئة من العبد



ومهما يكن من شيء فالحسنة تنسب إلى الله تعالى سواء فسرناها بالعمل الصالح أو بالنعمة والرخاء، والسيئة تنسب إلى العبد لأنها كانت بسببه، ولما صح أنه السبب في وقوعها وإحداثها صح نسبتها إليه، كما في الآية الكريمة سواء كانت السيئة معصية أم كانت من قبيل الحن والمصائب، فإن العبد هو السبب فيها وإذا كان الله قد قضاها وكتبها فليس في ذلك جبر ولا إلزام للعبد بها، وإنما هو تسجيل لما يقع منه بناء على العلم السابق بما سيفعله العبد من أسباب تؤدي إليها.

والآية السابقة توقفنا على سؤال لا بد منه وهو. إذا كانت الطاعة والمعصية أو النعم والمصائب مقدرة فلماذا فرق الله بينهما فأسند الحسنة إليه سبحانه، وأسند السيئة إلى نفس العبد مع أن الجميع بقضاء الله.

هل لأن الإنسان هو السبب في نزول المصائب به أو لأنه ارتكب المعصية باختياره فأسندت إليه؟ ولكن هل أثر الإنسان يعد سببا تاما في ذلك حتى تتوقف عليه النتيجة من جميع وجوهها؟

من المعلوم أن إحسان الله إلى عباده يقع منه سبحانه بلا سبب تقدم من العبد بل يحسن الله إليهم ابتداء بالخلق والرزق والصحة وهيئة أسباب الهداية للعباد وينصبها لهم بلا سبب تقدم منهم، فالله سبحانه يبدأ علاقته بالعبد بالإحسان والفضل إليه وينتظر من العبد ما يقوم به إزاء هذه النعم، فلئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد، والسيئة إذا وقعت من العبد فإنها لا تكون إلا لفراغ قلبه من معنى الحسننة كما سبق، وإذا حصل ذلك فإن علاقته بربه لا تكون في مرتبة الشكر على النعمة، بل تكون في مرتبة كفران النعمة ولكل مرتبة جزاؤها المناسب لها. وهناك فروق حاسمة في نسبة الحسننة إلى الله والسيئة إلى العبد.

أولاً: إن الحسننة إذا وقعت من العبد، فالسبب الرئيسي فيها هو الله سبحانه وتعالى لأن الله قد هداه إليها أولاً، ومنحه أسباب التعرف عليها من العقل والشرع. فالله هو الذي خلق فسوى وقدر فهدى وهو الذي ألهم النفوس تقواها، كما قال أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(١)، فجميع ما يتقلب فيه العبد هو من

(١) سورة الأعراف: الآية [٤٣].

فضل الله وإحسانه إليه بدون سبب سابق يوجب للعبد حقاً على الله بخلاف السيئة، فإنها لا تكون إلا لذنوب سبق من العبد وأول هذه الذنوب فراغ القلب من الاشتغال بالطاعة، وهذه من الأمور الدقيقة التي يجب التنبيه إليها، وهي لا تكون إلا من العبد وهي ذنب عديم نتج عنه ذنب وجودي هو اشتغال القلب بالمعصية بعد فراغه من الاشتغال بالطاعة. وإذا تدبر الإنسان ذلك علم أن ما به من نعمة فمن الله وما به من سيئة فمن نفسه، فيشكر الله على النعمة ويستغفره على المعصية، فيزيده الله هدى ويبدل سيئاته حسنات، ويكون العبد في حياته متقلبا بين شكر الله على نعمائه واستغفاره من معاصيه. وهذه هي حياة المؤمن أن يحيا لله، ويجب لله، ويغض لله، والآية الكريمة إذا كانت جمعت بين الحسنة والسيئة في قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾^(١) فإن ذلك ليعلم المؤمن أن الكل لا يخرج عن قضاء الله الكوني، ولكنه فرق بينهما حيث نسب السيئة إلى النفس لينبه إلى هذا الفرق الدقيق وهو أن السيئة لا تكون إلا من نفس الإنسان وليسبب فراغها من معنى الهداية.

(١) سورة النساء: الآية [٧٨].

ثانياً: أن الحسنه يضاعفها الله للعبد إلى سبعمائه ضعف. ويشيب على الموم والعزم عليها، حتى وإن لم يفعلها العبد بخلاف السيئة فلا يضاعفها ولا يعاقب على الم بها، ويمحوها بالتوبة، وبالمصائب المكفرة وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾ ^(١) فكانت الحسنه أولى بأن تضاف إليه سبحانه والسيئة أولى أن تضاف إلى النفس.

ثالثاً: أن الحسنه لا يوجد وجه من وجوه تحقيقها في الخارج إلا ويصح إضافته إلى الله تعالى، فهو محسن بها من كل وجه بخلاف السيئة فإنها تقع من العبد والله كاره لها غير راض عنها، كما أن النعمة إذا وقعت فهي من إحسان الله إلى العبد أما المعصية فلا تكون إلا لسبب تقدم من العبد ويخلقها الله لحكمة.

وهي باعتبار تلك الحكمة خير، وباعتبار سببها السابق من العبد عدل. وهذان الوجهان هما جهة تعلق القضاء بالسيئة أو المعصية، والسيئة باعتبار هاتين الجهتين خير لا شر فيها، لأنها تقدمها سببها الموجب لها من العبد فصارت لأجله عدلاً والعدل خير لا شر فيه. كما أن القضاء لا يتعلق بشيء إلا لحكمة وتحقيق الحكمة خير لا شر فيه.

(١) سورة هود: الآية [١١٤].

وإذا كان فيها شر يصيب العبد فهو شر جزئي إضافي لا ينسب إلى الله، وإنما ينسب إلى العلة الفاعلة، وهي نفس العبد، فهي التي أغوت بفعل المعصية وهي التي تتألم بعقابها، ومن هنا كان ﷺ يقول في دعائه: «**الخير بيديك والشر ليس إليك**»^(١). والسيئة تضاف إلى النفس لأنها قد فعلتها لا لحكمة ولا لغرض ينفع، ولم يقصد العبد من فعل السيئة خيرا.

رابعاً: أن الحسنة التي يفعلها العبد أمر وجودي يصح إضافته إلى الله، وإتيان العبد لها يدل على معنى وجودي، قائم بالنفس، وهو إيمانه بما وجه لها واشتغال نفسه بطلبها، لأن الحسنة فعل مأمور به، أو ترك محذور منهى عنه، وترك الإنسان للسيئات إنما حصل لمعرفته بأنها سيئة وأنها سبب البلاء في الدنيا والعقاب في الآخرة، فيقوم في نفسه معنى وجودي هو بغضه لها وكراهته فتتنشغل نفسه عنها. كما أن معرفته بالحسنات كالعدل والصدق وغير ذلك يكون أيضا لأمر وجودية قائمة بالنفس هي محبة ذلك وطلبه الاشتغال به، ولهذا فإن الإنسان يثاب على ترك السيئات إذا تركها كارهها لها كافا نفسه عنها. وهذا هو المعنى الوجودي الذي

(١) ورد الحديث في ابن حنبل ١٢٤ / ٢ دار المعارف و (مسلم) كتاب صلاة المسافرين ١٨٥ / ٢.

يثيب الله العبد عليه إذا قام بنفسه، أما مجرد ترك السيئات من غير معرفة بها ولا كراهة لها كأن لم يخطر على قلبه أنها سيئة محظورة فلا يثاب على هذا الترك، وإن كان يحمّد على ذلك في الدنيا، وتكون السيئة في حقه كالطفل الذي لم يقم في نفسه معنى وجودي يحمله على الكف عن القبائح، وكذلك فعل الحسنات، فإن المرء لا يثاب على فعلها إلا إذا كان ذلك لمعنى وجودي قائم بالنفس يحمله على فعلها حبا فيها وطلبها لها وامتنالا للأمر الإلهي بها، أما لو فعلها بدون هذه القصود وتلك المعاني فإنه لا يثاب عليها، وهذا يؤكد لنا دور النية وأهميتها في إحداث الفعل، كما قال ﷺ « **إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى** » وهذا بالتالي يضع لنا الحدود الفاصلة بين فعل العبد رياء وسمعة وبين فعله لله، فالله لا يثيب ولا يعاقب إلا على المعنى الوجودي القائم بالنفس، أما مجرد الفعل أو الترك بغير قيام هذه المعاني في النفس التي تدعو إلى الفعل أو الترك، فهذا لا يثاب عليه ولا يعاقب.

والإنسان لا يفعل السيئة إلا لجهله بعواقبها أو طغيان عامل الشهوة والهوى على عامل الإيمان والهدى، ولو قام في النفس العلم النافع بضرر السيئة ونفع الحسنة لفضت النفس بفعل الحسنة وترك

السيئة فيكون كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَحْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمُوا^١﴾ (١). لأن العلم بعواقب الأمور هو الذي يحمل النفس على محبة الحسن وفعله وكراهة القبيح وتركه. ولكن النفوس لما كانت حية متحركة ومتحولة فإن سعادتها بتحركاتها نحو ما ينفع، فإذا اهتدت بهدي الله وعرفت الحق وتحركت نحوه فذلك هو المعنى الوجودي الذي يثاب عليه، ولكنها إذا لم تهتد، ولم تعرف الحق فذلك أمر عديمي. هو فراغ النفس من معنى الهداية، وهذا الأمر العدمي لا ينسب إلى الله حتى يقال إن الله فاعل السيئة بالعبد أو جبره عليها، وإنما ينسب إلى النفس لإهمالها وعدم اشتغالها بأسباب الهداية التي منحها الله لها، وهذا تولد عنه فعل السيئات كما سبق. ومن هنا صح نسبة السيئة إلى النفس من كل وجه.

خامساً: أن ما يجري به القضاء على العبد من الذنوب الوجودية كارتكاب الموبقات والفواحش، فإن ذلك يكون عقوبة للعبد على ترك الحسنات التي خلق لأجلها وفطر على محبتها، فلما لم يفعلها - وهو مخلوق لأجلها - عاقبه الله بأن زين له الشيطان فعل السيئات فكان تسلط الشيطان عليه وتزيينه له فعل السيئات هو

(١) سورة فاطر: الآية [٢٨].

معنى إلهام الله هذه النفوس فجورها، وكل هذا يرجع إلى عدم الاهتداء وهذا لا ينسب إلى الله حتى يقال إن الله فاعله بل هو من ظلم النفوس لأصحابها، وهذا الموقف يتضمن أمرين:

الأمر الأول: ظلم النفس صاحبها بعدم الاهتداء وعدم فعل الحسنات، وهذا لا يصح نسبته إلى الله، لأن الله قدر فهدى.

الأمر الثاني: ظلم النفس صاحبها بفعل السيئات وهذا من فعل العبد باختياره، فلا ينسب إلى الله، ومن تأمل آيات القرآن الكريم تبين له أن ما يذكره الله في خلق المعصية أو الكفر يجعله عقابا للعبد على ذنب تقدم، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾^(١)، ﴿ وَأَمَّا مَنْ نَحَلَ وَاسْتَفْتَى ﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿ فَسُيِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾^(٢)، وهذا قد ورد في القرآن كثيرا.

وإذا فهمت هذه القضية حق فهمها، فإنها تبطل كلام الأشاعرة الذين يقولون إن الله يخلق الكفر والمعصية ويعاقب عليها لا لسبب ولا لحكمة. كما تبطل رأي المعتزلة الذين يقولون: إن العبد يخلق أفعاله بقدرته المستقلة عن قدرة الله، كما تبطل قولهم بأن المعصية تقع من العبد دون أن يقضي الله بها ولا يتعلق بها القضاء الإلهي.

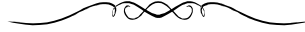
(١) سورة الصف: الآية [٥].

(٢) سورة الليل: الآيات [٨: ١٠].

سادساً: إن السيئة خبيثة لا تحل إلا بالنفوس الخبيثة والنفوس الخبيثة لا يناسبها ولا يحل فيها إلا العمل الخبيث.

والنفس لما أعرضت عن هدي ربها واشتغلت بفعل ما يكره كان خلق الطاعة فيها - بعد ما ضلت - وضع للشيء في غير موضعه اللائق به. وهذا ظلم، كما أن خلق السيئة في النفوس التي اهتدت وأذعنت لربها وضع للشيء في غير موضعه وهو ظلم أيضاً.

فيجب أن ينزه الله عن هذا وذاك. فمن أراد أن يجعل الجاهل معلماً للناس إماماً لهم، وأن يجعل الجبان العاجز قائداً للجيوش إماماً فيهم، فقد وضع الأمور في غير موضعها اللائق بها، ويكون بذلك قد ظلم القائد والرعية معاً، وبهذه الفروق يتضح لنا أن الحسنه من الله والسيئة من النفس، وأنه لا حجة فيها للمعتزلة ولا للأشاعرة على سواء^(١).



(١) انظر في ذلك: رسالة الإرادة والأمر لابن تيمية، تفسير ابن تيمية ٢ / ٢٦٥ - ٣١٤ الحسنه والسيئة ٤٠ - ١٠١، شفاء العليل ٢٣٥ - ٢٣٧.

معانى الهداية فى كتاب الله



يسبق إلى أفهام كثير من الناس أن الله سبحانه وتعالى لو اختص بعض عباده بأنواع من الفضل ابتداء منه سبحانه أو لسبب تقدم به العبد بين يدي ربه فقد حرم غيرهم من هذا الفضل ومنعهم حقا من حقوقهم. فإذا اختار نبيا ليبلغ عنه دعوته إلى عباده فيعرض عليه البعض قائلًا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ^(١) وإذا اختص بعض عباده بأنواع من رحمته كالهداية مثلا، فقد يحتج بعض الناس بأن الله منع الهدى عنه واختص بها غيره، وكأن الله إذا هدى أحدا فقد أضل غيره عن سبيل الهدى؛ وهذا مصدر خطأ كبير في فهم مسألة سبق القضاء الإلهي بالهداية والضلال، والقرآن يوضح لنا أن الهداية الواردة في القرآن الكريم على أنواع ثلاثة:

(١) سورة الزخرف : الآية [٣١].

النوع الأول: هداية عامة لجميع الناس، المسلم والكافر والبر والفاجر، فالله هدى كل نفس إلى ما يصلح شأنها، وفطرها على جلب النافع ودفع الضار عنها، وهذه أعم مراتب الهداية، هداية الحيوان بفطرته إلى ما يصلح معاشه ويدفع عنه ما يسوء. والعقل في الإنسان أحد مظاهر هذه الفطرة الإلهية التي يشترك فيها مع بقية الكائنات الأخرى قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا...﴾^(١). وهذه الهداية تقترب بخلق الكائن في ابتداء أمره وحياته، فهدى الطفل إلى التقام ثدي أمه بدون معلم ولا مرشد، وهدى الحيوان والطير وغيرهما إلى جلب النافع ودفع الضار، وهذه الهداية قد قادت كل كائن إلى الاعتراف بربه وذكره وتسبيحه. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢). وهذه الهداية يقترب ذكرها في القرآن كثيراً بالخلق للدلالة على أنه سبحانه وتعالى هو الخالق. قال فرعون: فمن ربكما يا موسى؟ قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، قال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه من الخلق لما يصلح به شأنه والاهتداء لما خلق له وهداه إلى ذلك.

(١) سورة الشمس: الآية [٧].

(٢) سورة الإسراء: الآية [٤٤].

فالهداية العامة دائما تقتزن بنعمة الخلق، لأن الخلق إعطاء الوجود العيني للأشياء، والهداية إعطاء الوجود الذهني والعلمي. فهذا خلقه... وهذا هداه، وكلها هداية عامة وإعطاء تام فكل ما خلقه الله، جعل هدايته ذاتية فيه وليست خارجة عنه.

النوع الثاني: هداية البيان والإرشاد والدلالة والتعليم، وهذا النوع هو وظيفة الرسل والكتب المنزل من السماء. وهو خاص بالمكلفين فقط، وهذه الهداية هي التي أثبتها الله لرسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١). وهي أخص من التي قبلها، وبها تقوم حجة الله على عباده فلا يعذب أحدا من خلقه إلا بعد أن يقيم الحجة عليه بأنه هداه وبين له طريق الغي من الرشاد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولاً﴾^(٢). وحتى لا يقول أحد: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، والله تعالى لم يحل بين أحد من خلقه وبين هذه الهداية بل خلى بينهم وبينها ومنحهم أدوات تقبلها عن الرسل ووسائل الاستفادة بها من العقل والفطرة، وأقام لهم بذلك أسباب الهداية ظاهرة وباطنة، ومن حرم من خلقه بعض الأدوات أو الوسائل التي تساعد العبد على أداء

(١) سورة الشورى: الآية [٥٢].

(٢) سورة الإسراء: الآية [١٥].

أوامر الله ونواهيه، كزوال العقل أو الصغر أو المرض فقد حط عنه من التكليف والأوامر الشرعية بحسب ما حرمه من ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ﴾ (١).

وقال ﷺ: "رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ. وعن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق" (٢). كما اتفق رجال الأصول على أنه (إذا أخذ ما وهب فقط سقط ما وجب).

وهذه الهداية هي مصدر التكليف ومناطه وبها تقوم الحجة لله على عباده وتكون المساءلة بالثواب والعقاب. وهي تستلزم الاهتداء من العبد. بدليل أن بعض الناس آمن بدعوة الرسول وبعضهم كفر بها ولكنها سبب في الاهتداء، وحصول السبب ليس كافيا في وجود مسببه لأنه قد يكون هناك ما يمنع ذلك إما لعدم كمال السبب، أو لعدم صلاحية القلب القابل للأثر، كأن يطرأ عليه ما يفسده ويغير حاله كابتلاء القلب بالشبهات وازدحام العقل بالشكوك والأمراض.

والسبب هنا لا يجوز القول بعدم كماله، لأنه من جهة الله

(١) سورة النور: الآية [٦١].

(٢) ورد الحديث في مواضع كثيرة من البخاري في كتاب الحدود والطلاق وفي مسند ابن حنبل ٦/ ١٦٤.

سبحانه، فهو قد بعث الرسل، وأنزل الكتب، والرسل قد بلغت أئمةها ووضحت لهم سبيل الرشاد فلا نقص في السبب إذن، وإنما لم ينتفع العبد بما جاء به الرسول لما طرأ عليه من فساد فطرته وطغيان مادته فلم يلتفت إلى هدي الرسل ولم يستفد مما جاءوا به، فالقصور في الحل القابل للأثر وهو الإنسان وليس في نقص السبب كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ^(١). فإن الله هداهم بإرسال الرسول إليهم فلم يهتدوا بما جاء به، فأضلهم الله عقوبة على ترك الاهتداء والإعراض عما جاء به الرسول، وهذا شأن الله في كل نعمة أنعم بها على عباده إذا كفروا بها، فإنه يسلبها منهم بعد أن كانت حظاً لهم، لأن الله ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ولكن يطرأ هنا سؤال هو: إذا كان الله قضى على بعض الناس بالمعصية فكيف تقوم عليه الحجة بالرسالة إذا كان لا يستفيد منها.

وهنا يجب التنبيه إلى التفرقة في الفعل الإنساني بين ما هو من الله، وما هو من الإنسان، فالله قد أكمل الإنسان ومنحه أدوات الاهتداء، وبعث إليه من يهديه، وخلق بينه وبين الرسل، ولم يحل بينه وبين ما يهديه، وإذا حرمه بعض الأدوات فإنه يسقط عنه من التكليف بحسبها، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهراً وباطناً،

(١) سورة فصلت: الآية [١٧].

وهذا هو حجة الله على عباده، فلم يمنع أحدا شيئا من ذلك، ولن يحاسب أحدا من خلقه ما لم تقم عليه الحجة بكل ذلك، والقرآن قد قص علينا ما كان من الأمم التي أرسل الله إليها فلم تستفد هديهم فقال تعالى يصف حالهم في نار جهنم: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ٨ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ٩ ﴿١﴾ فالذي حدث من الله هو الهداية ولكن كان من العبد التكذيب والضلال، فكان في مقدور العبد أن يتبع الرسول ويؤمن بما جاء به وليس ذلك شيئا خارجا عن قدرته أو فوق طاقته. نعم. في مثل هذه الحالة لن يخلي الله بين العبد ونفسه والنفس بطبعها أماراة بالسوء، إلا ما رحم ربي. فإذا وكل الله الإنسان إلى نفسه قادته إلى الهلاك وهو بذلك يكون قد قطع عنه توفيقه ولم يرد الله أن يعينه على نفسه ليقبل بقلبه على الله. كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيْكِنَ اللَّهُ حَبِيبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ٢٠ ﴿٢﴾ وهو سبحانه وتعالى إذا فعل ذلك بأحد من خلقه فليس ظالما له. لأنه لم يمنعه من الدلالة أو

(١) سورة الملك: الآية [٨].

(٢) سورة الحجرات: الآية [٧].

البيان وهذا في مقدور العبد فعله ولكن حرمه التوفيق والسداد حين أعرض العبد عن هدي الرسول عدلا منه في خلقه وحتى لا يسوي بين من آمن بالرسول واهتدى بهدي ربه وبين من أعرض عن هدي الله والرسول وجحد الكفر.

النوع الثالث: هداية التوفيق والسداد والإلهام وخلق الدواعي للخير والهداية، وإيجاد المشيئة من العبد المستلزمة للفعل وهذه المرتبة أخص أنواع الهداية؛ لأنها لا تكون إلا لمن قضى الله له بالسعادة فعلا. وهذا النوع من الهداية يستلزم أمرين:

أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدي بخلق الداعية في القلب إلى الفعل والمشيئة له.

الثاني: فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر للفعل الأول الهدي قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ هَدَىٰ هَدًى ٱللَّهُ ۖ﴾^(١) ولا سبيل إلى وجود الأثر الذي هو الاهتداء من العبد إلا بعد وجود المؤثر الذي هو الهداية من الله، فإذا لم يحصل فعل الله لم يحصل فعل العبد.

وهذا النوع من الهداية لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه، ولقد

(١) سورة آل عمران: الآية [٧٣].

نفى القرآن هذا النوع عن الرسول لأنه ليس من وظيفته. قال تعالى:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

قال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٢).

وهذا النوع من الهداية لا يعطيه الله للناس بلا سبب يتقدم به العبد
بين يدي الله، وإنما ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾
فاتباع النوع الثاني (هداية الرسول) هو شرط في حصول هذه الهداية
الخاصة بالقلب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ
تَقْوَاهُمْ﴾^(٣). والأمر في ذلك كما يشاهده الإنسان في عالم الشهادة،
فإن من يتقرب إليك ويأتمر بأمرك ونهيك ويكون حيث تريد أن يكون
فإنك ولا شك تنزله مكانة أسمى وأرفع من غيره الذي لم يأتمر بأمرك
ولا نهيك بل كان حيث تريد ألا يكون.

وهذا النوع من الهداية هو الذي نفاه القرآن عن الظالمين
والفاسقين والكذابين والمسررف المرتاب .. وكل آية في القرآن

(١) سورة القصص: الآية [٥٦].

(٢) سورة الأعراف: الآية [٤٢].

(٣) سورة محمد: الآية [١٨].

وردت في نفى الهدى فيجب حملة على هذا النوع من هداية القلب والتوفيق والسداد؛ لأن هداية البيان والدلالة لم يمنحها الله أحد من خلقه لأنها عامة فيهم.

أما هذا النوع (هداية القلب) فهو فضله يختص به من يشاء من عباده، ولا حرج في ذلك.

وهذا النوع الذي أنكرته المعتزلة وقالت إن العدل يقضي بالتسوية بين العباد في كل شيء وجعلت آيات القرآن في ذلك النوع من التشابه، وتتأوله على تأويلات باطلة لا سند لها من اللغة أو العقل. كأن يقولوا المراد بذلك تسمية من يشاء مهتدياً أو ضالاً. وليس في لغة العرب أن قوله تعالى ليس عليك هداهم أو إنك لا تهدي من أحببت على معنى ليس عليك تسميتهم، أو أنك لا تسمى من تشاء مهتدياً أو ضالاً. ولكن الله يسمي من يشاء وهذا بلا شك تأويل فاسد لا سند له.

ولا ينال من العدل الإلهي شيء إذا اختص الله بهذا النوع من الهداية من تقرب إليه من عباده وحرمة من حاد وضل عن سبيله. فهو فضله يؤتاه من يشاء، ويمنعه من يشاء وإنما ينال من العدل الإلهي لو حرم أحداً من الهداية العامة ثم حاسبه على أمره ونهيه، والواجب في ذلك أن يعرف أن الله جعل الهداية العامة

مقدمة لنيل الخاصة أو الحرمان منها. فهو قد تفضل على الجميع بالهداية العامة، من اهتدى بها بالهداية الخاصة، وهي هداية القلب، وكانت جزاء من الله على من اهتدى الهداية الخاصة تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾^(١). والظلم يكون إذا منح هذه الهداية من ليس أهلاً لها ولا مستحقاً إياها:

والله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق في قلب العبد الدواعي والمشية إلى الفعل الحسن، فيترجح عنده العمل على الترك قال تعالى: ﴿وَلَيَكُنَّ اللَّهُ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾^(٢). وهذا الفعل الإلهي من خلق الداعية وإيجاد المشية ليس حقاً مكتسباً على الله لعباده، ولكنه تفضل ورحمة منه بمن آمن بالرسول واهتدى بهديهم، وصاحب الفضل يتصرف فيه كيف يشاء، ويختص به من يشاء من عباده، ويمنعه من يشاء، وهو سبب تام يلزم عنه أثره بالضرورة، وهو ترجيح جانب الفعل على جانب الترك ولو منع الله هذا الفضل أحداً من خلقه فإنه بذلك يخلي بين العبد ونفسه.

والنفس بطبيعتها حية متحركة، وسريعة التحرك لأن الحركة

(١) سورة مريم: الآية [٧٦].

(٢) سورة الحجرات: الآية [٧].

والتحول من حال إلى حال أخرى، من لوازم كونها نفساً، فإذا لم يحركها صاحبها نحو الخير حركته هي نحو الشر، فيترك فعل الخير لأن الله قد خلّى بينه وبين نفسه، وينشأ عن تركه فعل الخير أن يتجه إلى فعل الشر عقوبة له على تركه لفعل الخير كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾^(١). فيحاسب على فعل الشر الذي فعله هو باختياره وقدرته الكاملة ويكون دور القضاء الإلهي هنا أنه خلّى بين العبد ونفسه لسبب تقدم به العبد. وهو الإعراض عن هدى الله الذي أرسل به رسله، ولا شك أن هذا لا يعد ظلمًا ولا قهراً لأن الله إذا منع فضله لا يكون بذلك ظالماً، بل الظلم يكون بوضع الفضل في غير موضعه، وقد علم الله ألا أن العبد الذي يحرم من فضل الله ليس أهلاً له فمنعه عنه عدلاً وحكمة: وتكون نفس الإنسان هي التي صدته عن تقبل الخير، وقادته إلى سبيل الغي، والإنسان بذلك يكون قد عرض عليه الهدى فأبى، كما قال سبحانه ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، ومن هنا قال ﷺ: "الخير بيدك والشر ليس إليك"^(٢). وكان يقول في دعائه "اللهم آت نفسي تقواها وزكها فأنت خير من زكها

(١) سورة فصلت: الآية [١٧].

(٢) ورد الحديث في مسلم ١٨٥ / ٢ (كتاب الصلاة - باب الدعاء) وذكره ابن حنبل في السند ١٣٤ / ٢ ط دار المعارف.

أنت وليها ومولاها " لأنه كان يعلم أن النفس ما لم يعصمها الله فإنها أمانة بالسوء، فكان يدعو الله أن لا يمنعه فضله وألا يدعه إلى نفسه طرفة عين، وإذا كان معنى الهداية في كتاب الله تعالى يتفاوت بين هذه المراتب الثلاثة:

- ١- الهداية العامة - المتمثلة في الفطرة والعقل.
- ٢- هداية الإرشاد والدلالة والبيان وهو ما جاءت به الرسل ونزل به الوحي.
- ٣- هداية القلوب وهي خاصة بمن آمن بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً واتبع هدى الرسول.

أقول: إذا كان معنى الهداية يتفاوت بين هذه المستويات الثلاثة فلا يجوز لأحد أن يضع آية مكان أخرى أو يفسر معنى الهداية في آية بغير معناها الذي جاءت من أجله حتى لا يظن أحد أن أي القرآن يضرب بعضه بعضها ويناقض بعضها بعضاً. كما قد قرأنا أخيراً في بعض الصحف والمجلات، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.



فهرس



الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
الخلل فى مسيرة الأمة	١٥
تكريم الإنسان دين وعقيدة	٣٨
نحو قراءة جديدة لعلم الكلام	٥٤
علاقة العقل بعالم الغيب	٧٧
مدارك العقول بين عالم الغيب وعالم الشهادة	٩٧
الدين والدولة بين التاريخ والواقع	١١١
الخطاب الدينى المفترى عليه	١٢٢
من معالم المنهج التربوى عند الإمام الغزالى	١٣٥

الموضوع	الصفحة
مناسك الحج وفلسفة الإسلام في رفع الحرج	١٤٩
الإنسان وتجربة الابتلاء	١٦٢
معاني الحسنه في كتاب الله	١٧٦
الحسنه من الله والسيئه من العبد	١٨٦
معاني الهداية في كتاب الله	١٩٥
الفهرس	٢٠٧